صحوة شاب

تأليف: محمد ظلال المعلم

{وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ} {الأنفال: 7}

تأليف: محمد ظلال المعلم

المقدمة

لـن تُوهـب لنـا لحيـاة إلَّا مـرَّة واحـدةً في الدنيـا وهـي قصيـرة، إن لـم نسـتطع أن نعيشـها بـكلِّ تفاصيلها نصبـح كـدواب الحقل نـأكل وننام كثيـر منَّـا كان لـه آمـال وأحلام، تُخفـي خلفهـا آلاماً وأسـقاماً، وكانـت في معظـم الأحيـان تنتهـي عندمـا يطلـع النَّهـار

ولكـن عندمـا يكـون الأملُ حاضـراً تتجـدَّد الأحلام لترينـا سـعادة كاذبـة، نقتطفهـا في غفلـةٍ مـن واقعنـا، الَّـذي هـو أقسـى مـن أن يجعـل الأحلام دائمـةٌ مسـتمرة

لـن أتكلَّـم بنظـرة متشـائمة، ولكـن مـا قاسـيناه في عالـم الإجـرام السُّـلطوي، لـم يَذُقـهَ أيُ مـن شـعوب العالـم في العصـر الحديـث. وقـد حفـر هـذا الإجـرام في قلوبنـا أخاديـد وسـكن فيهـا، فرافقنـا بـكلِّ تفاصيـل حياتنـا، وأصبـح كغـولٍ يكبـر ويكبـر، بعـد أن أكل أعمارنـا وتاريخنـا وحاضرنـا وماضينـا

حماس الشباب

سامحُ شاب يبلغ من العمر خمسة عشر عاماً، بالصَّف العاشر، يعيش مع أبيه وأمِّه وأخته الَّتي تصغره بثلاثة أعوام، في حيٍّ أغلب سكانه من أصحاب التِّجارة والأموال، يسمى حيُّ السَّبيل في حلب فأبوه تاجرُ أقمشةٍ وله محل في سوق المِدينة، وهي تحتوي على أسواقٍ قديمة مسقوفةٍ، تعدُّ مركزاً تجارياً فيها، بل هي أكبر مكانٍ تجتمع فيه رؤوس أموال التُّجار، أما أمُّه فتعمل مدرسةً لمادة الرِّياضيات، وأخيراً شعرت أنها ليست بحاجة للنقود التَّي تأخذها كأجر عن عملها في نهاية الشَّهر فقدَّمت استقالتها وتركت العمل، وتفرَّغت لبيتها وأولادها وصديقاتها، فهي تُحبُّ الاجتماع بهنَّ كما أنَّها تُحبُّ الخروج وتناول الطَّعام خارج بيتها الفخم، فكلُّ ما تطلبه يتحقق لها ولأولادها، فأبو سامح لا يبخل عليهم بأيِّ شيء، فهو يملك سيَّارةً حديثةً، وكذلك زوجته تملك أخرى تقودها بنفسها، وتعيش حياة الرَّغد، أما سامح فهو متفوِّقٌ بدراسته، فكلُّ ما يطلبه حاضرٌ بين يديه، ولكلِّ مادةٍ دراسيَّة أستاذها الخاص، يأتي إلى بيت سامح ليدرِّسها له، حتَّى إنَّه يلعب كرة السَّلَّة وله مدربُ خاص أيضاً، فأموال أبي سامح كثيرة، وبضائعه رائجة تكاد لا تحصى، وكان سامح يلتقي بزميله سليمان بالمدرسة وخارجها، فأيضاً سليمان يلعب كرة السَّلَّة وهو في نفس صفه الدِّراسي، ولكنَّه يسكن في حيٍّ شعبيٍّ وسط حلب بجانب السَّاعَة

أبو سليمان يعمل موظَّفاً لدى دائرة المالية بحلب، وأمُّه موظَّفة لدى دائرة التَّربيَّة، وله ثلاث أخوات واحدة أكبر منه، والاثنتان تصغرانه بالسِّن، حالة عائلة أبي سليمان كحال كثير من الأسر السُّوريَّة المتوسطة، فبالكاد ينتهي أيام شهرهم مع راتبي أمِّ سليمان وأبيه، وحتَّى إن أبا سليمان كثيراً ما كان يذهب إلى دكان أخيه النَّجار بعد انتهاء دوامه، ليساعده ببعض

أعمال النِّجارة، فأبو سليمان يعتبره دخلاً آخرَ، وأخوه يحاول أن يساعده دون أن يجرح مشاعره

سليمان شابٌ متفوِّقٌ كزميله سامح، ولكن من دون دورات خاصَّة، فدخل والديه لا يكفي لمصاريف إضافيَّة، وإذا أراد أن يستمر بالتَّفوِّقِ فعليه المثابرة على دراسته بشكلٍ أكبرَ فلا طريق له إلّا بالجد والعمل، ولقد اختار أن يذهب إلى المدرسة البعيدة الَّتي هي بحيِّ السَّبيل، بسبب وجود ناديه الرِّياضي بجوارها، فأكثرُ الأيامِ يخرج من المدرسة مباشرةً إلى النَّادي، ليقومَ بحصة التَّدريب، وبعد أن ينتهي ينطلق إلى بيته راجعاً برحلة طويلة عبر حافلة النَّقل الدَّاخلي، وتستمر حياة الأسرتين بشكل (روتيني)، ودون عوائق أو مشاكل كثيرة، فهم لا يتدخلون بالسِّياسة، ولا علاقة لهم بأيِّ أحزاب أو حركات أو تجمعات، إلَّا أن الشَّاب سليمان كان يدرس القرآن في حلقة المسجد القريب من البيت بعد انتهاء صلاة الجمعة.

انتهى العام الدِّراسي، وفي صيف عام 1979 بدأت بوادر المشاكل تظهر بين نظام حافظ الأسد وجماعة الإخوان المسلمين، ومعروف أنَّ النُّصيريين منذ أن استلموا الحكم بسوريا، فرزوا المجتمع بين مؤيِّد ومعارض، وبين سُنّيّ وعلويٌّ وأقلّاويٌّ، وأمسكت الطَّائفة النُّصيريَّة بزمام الأمور، وسرقت كلّ ما في سوريا من ثروات وبترول وأموال لصالح فئة صغيرة من طائفتهم، وهذا ممَّا عمق الحقد في قلوب كثير من أهل السُّنة، الَّذين يشكلون الغالبية العظمى في المجتمع السُّوري

وفي حراك بسيط بين الطَّبقات المثقَّفة وبين بعض الحلقات في المساجد، مع بعض الشُّبان الثَّائرين التَّواقين للتغيير، بدأت بعض المظاهرات الغاضبة تسير في شوارع المدن، ولكن على استحياء، إلى أن أتى يوم السَّبت 16 حزيران من عام 1979وقام النَّقيب إبراهيم اليوسف، ضابط أمن مدرسة المدفعيَّة في حلب، بتجميع الضُّباط النُّصيريين في قاعة الطَّعام، وقتل

أكثر من خمسين ضابطاً دارساً، في ذلك الوقت جنَّ جنون نظام أسد، ومن ورائه طائفته النُّصيريَّة، ووجدوها فرصة لينكِّلوا بالشَّعب وبأهل السُّنة، فقاموا بأعمال اِنتقام وقتلٍ واِعتقال لكلِّ من في قلبه حبٌّ للإسلام، أو أنَّ له أيّ اتِّجاه أو اِلتزام ديني

وفي هذه الأثناء كان سليمان من الشَّباب المتحمِّس، فقد تعلَّم في مسجده أنَّ المسلم يجب أن يكون عزيزاً، ولا يرضى بالضَّيم، ولا يقبل بالذُّل
التقى سليمان بسامح في حصة التَّدريب وتكلَّما كثيراً عن حال البلد، وكأنَّهما كبار يحاولان أن يصلحا أمر الأمَّة، في بداية الأمر أظهر سامح عدم الاكتراث، وأنَّه لا يهتم بالسِّياسة ولا علاقة له بها، ومع إلحاح سليمان وشرحه المطول عن الظُّلم المحيق بهم، أقنعه أنَّ عليه الحضور إلى مسجد سليمان الَّذي هو في حيِّ الجميليَّة

في صباح الجمعة أتى سامح إلى بيت سليمان وذهبا معاً إلى المسجد، وبعد نهاية صلاة الجمعة كما العادة، اجتمعت خلية سليمان، وتكلَّم قائدها بكلِّ حماس أنَّ عليهم تغيير هذا النِّظام الطَّاغي القاتل، وأنَّ عليهم أن يتخلَّصوا من هذا الذُّل الَّذي أنزله عليهم، وبكلِّ جرأةٍ قرَّروا أن يخرجوا الجمعة القادمة من هذا المسجدِ ويطوفوا مدينة حلب، يعلنون فيها رفضهم لهذا النِّظام الطَّائفي، ويشجعون بقيَّة الشَّعِب إعلان الإضراب العام، ورفضه كلَّ هذا الظُّلم والتَّجبر، الَّذي يقوم به الأسد ونظامه
أخفى سليمان عن والديه ما يريد فعله، كما فعل سامح.

في الجمعة القادمة وحسب الوقت المحدد، اجتمع العشرات من الشُّبان المتحمِّس، وانطلقوا بحناجرهم تهدر وتقطع سكون يوم الجمعة صراحةً أنَّ الشَّعب يريد إسقاط النِّظام

بداية المأساة

وما هي إلَّا عشرات الأمتار مشوها، حتَّى انقضَّ رجال السُّلطة على الشُّبان المتحمِّسين، فهرب من هرب، وألقيَّ القبض على سامح وسليمان، واِقتادوهما مع بعض المعتقلين إلى فرع الأمن العسكريّ
وعلى باب الفرع، كان هناك عسكريٌّ مدجج بالسِّلاح، وقبل أن يدخل أيُّ معتقل، وقبل أن يُسأل أو أن يُجاوب يقوم بضربه وركله بكلتا قدميه، فيجعله طريح الأرض، ثمَّ يضع قدمه على رأسه قائلاً: أيها السُّنة سنبقى ندوس على رؤوسكم إلى مالا نهاية

جاء دور سامح ومن بعده سليمان، فَفُعل بهما كما فُعل بجميع المعتقلين.
إذا كان العذاب بهذه القساوة من أوِّله، فما هو مخبَّأٌ لنا الله أعلم قال سامح في نفسه ناظراً إلى سليمان نظرات كلُّها عتب ولوم، محدِّثاً نفسه: أنت من ألقيت بنا بهذه القصَّة المخيفة، مالي والمظاهرات!! ومالي والسَّياسة وهذه القصَّص! الَّتي لم أفكر بحياتي بها قبل أن تكلِّمني يا سليمان، آه يا أبي ويا أمِّي أين أنتما!! وكيف ستقضيان بقيَّة حياتكما حسرةً عليَّ
أما سليمان فكان يقول بنفسه، اللهم اِجعلها شهادة واِجعلها تقرباً لحضرتك، نحن لم نرتكب خطأ، ولم نطلب إلَّا جزءاً بسيطاً من حقوقنا، ولن أخاف هؤلاء المجرمين الظَّالمين مهما فعلوا بنا

أنزلوا المعتقلين إلى قبو الفرع، الَّذي فيه سجن مُعتِمُ، غرف صغيرة رطبة، تصدر منها رائحةُ كريهة، الغرفة لا تتسع لأكثر من خمسة أشخاص، ولكنَّها محشوة بأكثر من أربعين معتقلاً قابعين فيها، منهم من يقف على قدميه، ومنهم من يجلس القرفصاء، ومنهم يجلس على مقعدته، ويتمُّ تبادل المواقع بين هؤلاء السُّجناء

وفي زاوية الغرفة، هناك ما يشبه بيتاً للخلاء، ليس له باب وفيه صنبور ماء، من أراد أن يقضي حاجته فأمام كلّ الموجودين ومن أراد أن يشرب فمن هذا الصنبور أيضاً
ساعات وقد تأقلم القادمون الجدد على هذا الوضع.

ففي كلِّ يوم كان يفتح السَّجان نافذة الباب ويرمي لهم أرغفة خبز يابسة عفنة، على عدد المعتقلين لكلٍّ منهم رغيف خبزٍ واحدٍ،صباحاً مساءً
مضى أسبوع على الاعتقال ولم يكلّمهم أحد.
وفي اليوم السَّابع جاء دور السُّؤال والجواب، أتى الحارس وصاح على سليمان أن اِخرج جاء دورك. سحبه من قميصه وجرَّه ولكمه وضربه وركله بقدمه وبالعصا الَّتي يحملها بيده، وما زال يضربه إلى أن وصل إلى غرفة المحقِّق الَّتي هي في الطَّابق الثَّاني

فتح الباب، ودفعه إلى غرفة الضَّابط، أوَّل ما وقع نظر سليمان على شخصينِ عملاقينِ، يُمسك كلٌّ منهما (بكبل رباعي) وهذا الكبل هو نحاس سلك نحاسي ثخين مغطى بطبقة من البلاستيك يستعمل في تمديدات الكهرباء، وقبل أن يتعرَّف على شخصيتهما أو يطيل النَّظر إليهما نزلا بكلِّ ما أوتيا من قوة وعزم ضرباً على أجزاء جسمه الغض، الَّذي لمْ يشتد عوده بعد
وبعد دقائق من الضَّرب المبرِّح حسبه سليمان أعواماً، أجلساه على الأرض، وطلب منه أحدهما ألَّا يرفع نظره إلى المحقِّق ويجاوب بكلِّ صدق وإلَّا فإن العقوبة الفظيعة تنتظره
هل أنت سليمان..؟؟نعم.....
كم عمرك..؟؟ خمس عشرة سنة....

في أيِّ مدرسة تدرس..؟؟ الحقيقة هو نسي اسم مدرسته واسم ناديه، فهول اللَّحظة جعله لا يتذكَّر إلَّا اسمه

وقف لحظات وقد تلعثم، فإذا بالسُّوط يدق رأسه وظهره، صرخ من الألم متذكِّراً كلَّ ما مرَّ في حياته حتَّى حليب أمِّه الَّذي رضعه، أنا أدرس في حيِّ السَّبيل في مدرسة المقداد. تذكَّر الشَّاب اسم المدرسة بسرعةٍ كبيرة فالخوف يقطع الجوف، كما يقال.
لِمَ خرجت في المظاهرة العميلة الَّتي نادت بإسقاط سيادة الرَّئيس المفدى الخالد حافظ الأسد..؟؟

وماذا عليَّ أن أجيبه! هل سأعترف على نفسي وأذهب إلى حبل الإعدام! أم عليَّ أن أراوغ عسى أن أضلل هذا المحقِّق ليطلق سراحي، وأعود إلى بيتي وحضن أهلي تساءل في نفسه
والله يا أستاذ... ويسقط السُّوط ثانية على كلِّ أجزاء جسده، أستاذ يا حيوان..!! هذا اسمه المعلِّم أستاذ عند بيت أبيك، أيُّها الخائن العميل حاضر ياسيادة المعلِّم، قال سليمان.

ردَّ المحقِّق بصوت هادئ، أخبرني ياسليمان ماذا كنتم تفعلون في جامع حيِّكم..؟؟ومن هذا الَّذي كان يقود مجموعتكم..؟؟ وكيف اتَّفقتم على تفجير فرع الأمن العسكري الَّذي أنت فيه الآن..؟؟ وكيف خططتم لاغتيال سيادة العميد رئيس الفرع..؟؟وما دورك في هذه العمليَّة الجبانة..؟؟ومن أين لكم التَّمويل..؟؟وهل كنتم تقبضون بعملة الدُّولار أم بالسُّوري.؟ وماذا فعلت بالأموال الَّتي أخذتها..؟؟
وأمر الحارس بعدم ضربه، وتابع المحقِّق: أنا رجل عادل، ولا أريد منك أن تعترف إلَّا بما جاء في التَّقرير، بعد أن اِبتسم ابتسامة خبيثة
سليمان هذا الشَّاب الصَّغير الَّذي لا يعرف الدُّولار من الينّ، والَّذي لم يسمع بدولة إسرائيل إلَّا من خلال التَّلفزة السُّورية، والَّذي أبوه وأمّه يركضان ليل نهار حتَّى يؤمنا له ولأخواته مستقبلاً طيباً لا يسألون النَّاس فيه إلحافاً للحظات لم يعرف بأيِّ ردٍّ يجيب، ولم يفهم هل هذا الرَّجل يمزح، أو يتكلَّم بكلِّ جد

أنا الشَّابُ الصَّغير سليمان، الَّذي إذا جاع بكى، وإذا خاف ركض إلى حضن أمِّه، وإذا أراد حذاء جديداً، قبَّل يد أبيه عشرات المرَّات ليشتريه، أفعل كلّ هذا..!! هل صحيح أنَّ من في الغرفة قد صدَّق هذه التُّهم، الَّتي إذا نزلت على جبل لسوته بالأرض؟؟ قال في نفسه:ثمَّ أردف
والله يا معلِّم أنا لا علاقة لي بكلِّ ما ذكرت، فقد كنت بالصُّدفة البحتة مارَّاً في حيِّ الجميليَّة، وسمعت صوتاً من خلفي، فوقفت لأستطلع الأمر، ولم أنتبه إلَّا ورجال الأمن أحاطوا بي، ووضعوني بالسَّيارة وحالي كما تراه الآن

ظنَّ سُليمان على صغر سنه أنَّه نجا، وأن خطته قد نجحت وأن المحقِّق سيعفو عنه، وسيرجع إلى حضن أمِّه وأبيه، فهما الآن ينتظرانه على أحر من الجمر، فهو والله العظيم لم يفعل أيَّ شيءٍ إلَّا أنَّه مشى بضعة أمتارٍ مع هذه المظاهرة ولم يقتل، وحتَّى لم يفكِّر أنَّه يستطيع أن يُفجر، أو أن يَغتال أحداً
فمرِّة في العيد الماضي الماضي، أحضر أبوه دجاجةً حيَّةً، وأراد أن يذبحها ليطبخوها صباح يوم العيد، بقي سليمان ثلاثة أيام العيد باكياً، ولم يتذوَّق أيَّة لقمة من هذه الدَّجاجة، فكيف له أن يفجر ويقتل..!! يالطيف ما هذا الاِتهام، قال في نفسه، ثمَّ تابع يحدِّث نفسه بصوت منخفض: بعد ساعات سيطلقون سراحي وسأرجع إلى مدرستي ونادي السَّلَّة، ولن أعيدها ثانية، وأقسم بالله لن أدخل هذا المسجد مرَّة أخرى في حياتي، فقط علي أن أتابع الاحتيال على هذا المحقِّق الَّذي -والله أعلم- أنَّه صدَّقني
وما هي إلَّا لحظات قليلة حتَّى رجع والسُّوط والكبل الرُّباعي يضرب ويلهب ويجلد رأس سليمان وجسده، الَّذي أصبح لونه كزرقة البحر المتلبِّد بالغيوم، إلى أن أغمي عليه، ولم يعد يشعر بأيِّ شيء حوله، حاول الجلاد أن يوقظه فصبَّ على وجهه الماء، ولكن لا حياة لمن تنادي، سأل المحقِّق بلا مبالاة هل مات..؟؟

أجـاب الـجلاد: لا يـا معلِّـم، هـؤلاء الخونـة العـملاء لهـم سـبعة أرواح، كأرواح القطـط يـا ربّ يموتـوا كلُّهـم، ولا يبقـى في الوطـن إلَّا سـيِّده القائـد المفـدى، وجماعتنـا طبـعاً، ويقصـد طائفـة النُّصيريَّـة وأتباعهـم.
نعـم أيُّها الـجلاد لقـد صدقـت، الوطـن كان لأبيـك وأبـي السَّـيِّد الرَّئيـس، وقـد أوصيـا بـه إليكـم، بصفتكـم الورثـة الوحيديـن والحصرييـن لـه
نعـم أيُّها السَّـيِّد المحتـرم، الوطـن لمـن يقتـل ويظلـم النَّـاس ويسـرق خيراتـه، هكـذا علَّمتكـم طائفيتكـم، وهكـذا علَّمكـم إجـرام أجدادكـم.

درَّسـوكم أنَّنـا نحـن -أهـل السُّـنة- عبيـد لكـم ولأولادكـم، وقـد نسـوا كيـف كانـت نسـاؤكم وبناتكـم تُبـاع لنـا في غابـر الأيـام، وقـد نسـيتم أنَّكـم كنتـم تخدمـون في بيوتنـا لأجـل كسـراتٍ مـن الخبـز أو قليـل مـن الطَّعـام

قـال المحقِّـق: احملـوه وارمـوا هـذا الكلـب الخائـن في زنزانتـه، فـإن مـات فألقوه في شـارعه وإن بقـي حـيّاً، فغـداً نكمـل التَّحقيـق مـع هـذا العميـل، أدخلـوا الكلـب الَّـذي بعـده لنـرى كيـف سـننظف هـذا الوطـن مـن هـؤلاء المخرِّبيـن
قـال يريـدون إسـقاط سـيادة الرَّئيـس، إي قسـماً باللـه سـنحطم رؤوسـهم ونقتلعهـا مـن جذورهـا، ولنـرى أيُّنـا أشـدُّ عـذاباً وأبقـى.

حملـوا سـليمان الَّـذي أصبـح كخرقـة باليـة، عابريـن بـه الممـر الطَّويـل، نازليـن قبـو الفـرع، فتحـوا بـاب زنزانتـه ورمـوا بـه وسـط المسـاكين المظلوميـن الَّذيـن تزاحمـوا على أنَّفسـهم، ليوُّسـعوا لـه قليلاً مـن المسـاحة، ومـدَّدوهُ على أرض الغرفـة، ركـض سـامح إلـى صديقـه الَّـذي تغيِّـر لـون وجهـه وجسـمه، ولـولا أنَّ سـامحاً معـه لَـمْ يكـن ليعرفـه، اِرتمـى عليـه، وصـرخ بصـوتٍ عـالٍ، فأسـرع أحـد رفـاق الزِّنزانـة ليضـع يـده على فـم سـامح قـائلاً: أرجـوك أيهـا الشَّـاب لا تصـرخ، فلـو سـمعك الحـراس سـتكون ليلـة حاميـة علينـا جميـعاً، وسـوف نعاقـب بالكبـل الرُّباعـي، أرجـوك ثانيـة أن تسـكت وسـيكون صديقـك بخيـر إن شـاء اللـه حـاول شـاب عـرَّف بنفسـه أنَّـه يـدرس الطِّـب في السَّـنة الثَّالثـة، أنْ يمسـح

جـروح سُـليمان بعـد أن مـزَّق لباسـه الدَّاخلـي، ولـف مـكان النَّـزف مـن جسـمه، وبعـد سـاعتين اسـتيقظ مـن إغمائـه، ورويـداً رويـداً بـدأ يشـعر بآلامـه، حتَّـى ظـنَّ أنَّ الصُّبـح لـن يطلـع عليـه ثانيـة

بعـد أن وصـل خبـر اِعتقـال سـامح إلـى أبيـه وأمِّـه، أصبحـا يلومـان نفسـيهما كيـف لابنهمـا الخـروج في هـذه المظاهـرة!! وكيـف أنَّهمـا لـم يهتمـا به بالشَّـكل المناسـب!! ويلعـن السِّياسـة ورجالهـا ومالنـا نحـن والحكـم والرِّئاسـة، فخار يكسـر بعضـه، قالـت أمُّ سـامح
(صحيـح أيَّتهـا السَّـيِّدة المحترمـة المثقَّفـة، علينـا نحـن -أهـلّ السُّـنة- أن نتـرك السِّياسـة ونتـرك الحكـم وأن نقبـل بحكـم الأقلِّيَّـة الظَّالمـة، الَّتـي سـرقت أحلامنـا وآمالنـا. نعـم كل مـا تفكريـن بـه، كانـت قـد فكـرت بـه مئـات آلاف الأمَّهـات، وأمسـكن أولادهـنَّ في بيوتهـنَّ خـوفاً عليهـم، حتَّـى تَمكَّـن الطُّغـاة مـن الحكـم، وجعلوناعبيـداً)

أجـاب أبـو سـامح: كيـف لابننـا أن يذهـب إلـى هـذه المنطقـة البعيـدة دون إذننـا..؟؟ ردَّت الأمُّ:

إن مـن لعـب في عقلـه صديقـه سـليمان، هذا الشَّـاب ليس مـن بيئتنا ومسـتواه بعيـدٌ عـن مسـتوانا، لا أعلـم كيـف قبلـت أن يصادقـه، وهـذه هـي النَّتيجـة، يـا رجـل اللـه يرضـى عليـك، علينـا أن نسـعى لإطلاق سـراح ابننـا الوحيـد، حتَّـى ولـو اضطررنـا لبيـع كلّ أملاكنـا، فالقبـر أرحـم لـي مـن أن يُلقـى بسـامح بالحبس(ماهـذا الظُّلـم والتَّجبـر والإجـرام في دولـة البعـث الممانعـة لمجـرَّد أن خـرج شـاب في مظاهـرة صغيـرة تنتهـي حياتـه، وتكـون أيامـه هبـاء منثـوراً، ويمكـث في سـجون الأسـد إلـى نهايـة حياتـه، هـذا إن بقـيَّ حـيِّاً، أهنـاك نظـام في العالـم كلّـه يعـادل هـذا الإجـرام)
قـال أبـو سـامح: لا تخـافي سـأبذل كلُّ مـا بوسـعي، فأنـا تاجـرٌ ويـدي تطـول كلَّ الأفـرع الأمنيَّة

تركها حائرة حزينة وكأنَّ كلَّ غالٍ على قلبها قد وافته المنيَّة، خرج من وقته إلى صديقه رئيس المخابرات الجويَّة، ومن المعروف أنَّ تجار حلب يحاولون حماية أنفسهم وتجارتهم، فيتقربون إلى أجهزة الأمن بهداياهم وأعطياتهم، وحتَّى مشاركتهم بتجاراتهم، فيضمنون ألَّا يلاحقوا من دائرة التَّموين أو المالية، وحتَّى قد يُعفون من قسم كبير من الضَّرائب، وبهذا تنمو أرباحهم ويكدسون ما تصل أيديهم إليه من ذهب وفضة، وكانوا يفتخرون في مجالسهم وبين أقرانهم من التُّجار أنَّهم يصاحبون العميد فلاناً واللِّواء والعقيد... ظانين أنَّ ذلك يعطيهم المكانة والأهمِّيَّة

فتح باب سيَّارته وركبها بكلِّ ثقة، فأنا ابو سامح التَّاجر المعروف، ويدي في فم كلِّ المسؤولين، ولن أدع ابني يصاب بأيِّ أذى قال في نفسه
وصل إلى فرع المخابرات، وقد كان يدخل بسيَّارته إلى باب الفرع الرَّئيس سابقاً
فإذا بالحاجز الأوَّل يمنعه من الاقتراب، ما بالكم أنا أبو سامح؟ جاوبه الحارس: إنَّ الحراسة مشدَّدة، والتَّعليمات الَّتي جاءتهم ألَّا يسمحوا لأيِّ مدني من الاقتراب

ولكن ألم تعرفني؟ أراد أن يقول له الحارس (طز) ولكنَّه أوقف الكلمة قبل أن تخرج من فمه، ألا تعرف يا أبا سامح أنَّ كلّكم عبيد..؟؟ ألا تعرف أنَّكم لا تساوون فردة حذاء...؟؟ عندما نريد أن نركبكم فإنَّنا نفعل، وعندما نريد أن نستخدمكم، فبكلِّ بساطة نشير لكم بإصبعنا الوسطى لتفعلوا ما نريد، قال الحارس في نفسه ثمَّ أردف: اِرجع بعد أيام، قد يكون الوضع تحسن والأوامر تغيَّرت، وقد أستطيع إدخالك إلى سيادة العميد

أخرج أبو سامح من جيبه بعض النُّقود، ودسها في جيب الحارس، راجياً إياه ألَّا ينساه وقفل راجعاً إلى بيته يجرُّ ذيول الخيبة، فتح الباب فكان أوَّلَ من رأى أمّ سامح، وبصوت عاجل سألت ماذا جرى معك؟ هل رأيت سامحاً؟

متى سيفرجون عنه.؟
نظر إليها والأسى في عينيه قائلاً: لم أستطع أن أصل إلى العميد..
كيف لم تستطع.؟ أليس هو من تسهر معه وتُغدق عليه بالعطايا؟ أليس هو من يحلُّ كلّ مشاكلك ويحمي تجارتك..؟؟
صحيح، ولكن الوضع قد تغيَّر، والأمور باتت الآن صعبة، أجاب أبو سامح، ومضى إلى غرفة الجلوس، وزوجته تبكي وتندب حظها وحظ ولدها الوحيد

وبعد أن سكتت قالت لزوجها: سأتصل بزوجة العميد فأنا إحدى صديقاتها، ولعلها تستطيع أن تؤثر على زوجها، فهذا ابني وسأفعل المستحيل لأخرجه من هذه الكارثة(في كلِّ بلاد العالم تنفجر مظاهرات، ويرجع جميع المتظاهرين إلى بيوتهم وأعمالهم، وكأن شيئاً لم يكنْ، إلَّا في سوريا الأسد، فمن يقول: لا لعظمة الرَّئيس الرَّئيس فقد كفر بالله، وقد تنتهي حياته بشكل عاجل وغير محسوب، هذه هي دولة الممانعة والصُّمود والتَّصدي كما يسميها إعلام (الدِّكتاتور) أمسكت بالهاتف الأرضي، الَّذي كان وسيلة الاتصال الوحيدة يومئذٍ، وطلبت رقم زوجة العميد، الَّتي ردَّت بكلِّ جفاء وبرود، طلبت أم سامح أن تراها

فاعتذرت بأنَّ الوضع لا يناسب، ألحَّت أمُّ سامح وبدأت بالبكاء وشرحت لها ما جرى مع ولدها، ردَّت عليها بلا اهتمام أنَّها تعرف وأنَّ زوجها أخبرها زوجك أخبرك، وأنا صديقتكم! وزوجي صديق زوجك ولا تفعلون أيَّ شيء لأجل ولدي الوحيد!!! قالت في نفسها

وبعد إلحاحّ شديدٍ ومدٍّ وجزر أعطتها موعداً بعد ثلاثة أيام ودعتها قافلة الخط قائلة: ثلاثة أيام وولدي في السِّجن، ولا أعلم هل ينام!! هل يأكل! ثلاثة أيام وكأنَّ الأمر لا يهمك، ولكن ليست هناك مشكلة، المهم أنِّي أخذت موعداً

وفي هـذه الأيـام الثَّلاثـة حـاول الحـاج أبـو سـامح، ولَقـب الحـاج مفضـلُ لـدى تجـار حلـب، حتَّـى إن أحدهـم ليذهـب إلـى مكـة ليحـج باكـراً، لا لأجـل أن يقيـم الشَّـعائر المقدسـة، بـل لأجـل أن ينـادى عليـه بالحـاج فلان
حاول إيجاد طريقة ليلتقي بسيادة العميد ولكن دون أيِّة فائدة.
لا تعلـم أم سـامح كيـف مـرَّت الأيـام الثَّلاثـة، فهـي لـم تـذق فيهـا طعـم النَّـوم، وكانـت تقـوم في كلِّ ليلـة مفزوعـة خائفـة على وحيدهـا

ومـا إن أتـى اليـوم الثَّالـث حتَّـى ذهبـت إلـى بيـت زوجـة العميـد، وبعـد أن مـرَّت على الحراسـة الموجـودة أسـفل البنايـة، وطبـعاً رؤسـاء الفـروع ونوابهـم، لهـم حراسـة خاصَّـة في كلِّ مـكان يكونـون فيـه، قرعـت البـاب وسـلَّمت على زوجـة العميـد رئيـس الفـرع، الَّتـي أدخلتهـا إلـى غرفـة الضُّيوف الرَّسـمية وسـابقاً كانت تدخلهـا إلـى غرفـة الصَّالـون، قالـت في نفسـها بدايـة غيـر موفقـة فهـي تحـاول أن تشـعرني أنِّـي غريبـة عنهـا. وقبـل أن تتكلَّـم أمُّ سـامح أخرجـت مـن حقيبتهـا هديـة قدَّمتهـا إليهـا قائلـةً : هـي هديـةُ صغيـرةُ مـن أخـت إلـى أختهـا
نظـرت إليهـا فشـاهدتها سلسـالاً مـن الذَّهـب، الَّـذي يسـاوي ألفـي دولار هكـذا قدَّرتـه

بان الرضى على وجه زوجة العميد.
فتشـجَّعت أمُّ سـامح وطلبـت فـوراً منهـا أن يتدَّخـل زوجهـا لإطلاق سـراح ابنهـا، وشـرحت لهـا أن اعتقالـه جـاء بطريقـة خاطئـة، وأنَّـه كان مـارَّاً مـن هـذه المنطقـة عـن طريقـة الصُّدفـة، وأنَّهـم مؤيـدون لسـيادة الرَّئيـس الخالـد، وأنَّهـا هـي وزوجهـا وأولادهـا أرواحهـم فـداء لـروح هـذا العظيـم، وتقصـد حافـظاً، وأنَّهـا لـن تنسـى صنيعهـا هـذا طِيلـة حياتهـا، اسـتمعت بـكلِّ هـدوء لِما قالتـه أمُّ سـامح، ثـمَّ ذهبـت إلـى الهاتـف وطلبـت زوجهـا في فرعـه، وبسـرعة حـوَّل عامـل الهاتـف المكالمـة إلـى مكتـب زوجهـا، وأخبرتـه أن يَحـلَّ أمـر أمِّ سـامح
هي لم تسمع الجواب ولكنَّها شعرت أنَّ الأمور بدأت بالحلِّ.

أغلقت الهاتف واتَّجهت إلى أم سامح قائلة: لولا أنَّكم أعزاء علينا لما تدخلنا في هذا الأمر الصَّعب، وتابعت: ولكنَّ الأمر مكلفٌ وتعرفين يا -أم سامح- أنَّ ابنك معتقل في فرع آخر وأن زوجي سيحاول الإفراج عنه، ولكن هذا سيكلفكم كثيراً من المال

لَمْ تعقِّب أمُّ سامحٍ على التَّكلفة، هزَّت رأسها وقالت: أنا موافقة.
بدت الابتسامة على وجه زوجة العميد كثعلب سرق دجاجة من فم قرد، وقالت: غداً السَّاعة الثَّانية فليأتِ زوجك لمكتب زوجي، وإن شاء الله كلّ شيء سيكون بخير

ودَّعتها وخرجت من عندها وكانت الدُّنيا لا تسع فرحتها، فابنها الوحيد الحبيب سيرجع لها، وستمسك به ولن تجعل الشَّمس تراه
رجعت إلى بيتها، وأخبرت زوجها بما فعلت، فوافقها قائلاً: لو أنفقت كلَّ ما أملك فلن أتوانى عن إخراج وحيدي

في الموعد المحدَّد كان أبو سامح على باب الفرع وبعد أن اِتَّصل الحارس بمكتب سيادة العميد سُمح له بالصُّعود إلى الطَّابق الثَّاني

ففرع أمن المخابرات، كان مثل كلِّ أفرع الأمن بمختلف تسمياتها، بناء يتألَّف من طابقين كان معدَّاً كمدرسة، ولكن نظام أسد وجد أنَّ السُّجون والأمن أهم من التَّعليم، وأهم من بناء الإنسان وبناء الأجيال، فأهدى هذه المدارس لأفرع الأمن، الَّتي جعلتها بدورها أماكن للتعذيب والقتل وقهر النَّاس

بعد أن وصل إلى غرفة العميد الَّتي هي في نهاية الممر استقبله مدير المكتب، واصطحبه إلى سيادة العميد، الَّذي كان جالساً على كرسيه وراء مكتبه، تقدَّم إليه أبو سامح مادًا يده، فسلَّم عليه وهو جالسٌ، ولم يقف

لـه كالعـادة، حتَّـى إنَّـه لـم يكلـف نفسـه وينظـر إلـى وجهـه، أشـار إليـه أن يجلـس
هـل هـذا العميـد الَّـذي أعرفـه.! هـل هـذا صديقـي الَّـذي قضينـا مـعاً سـهرات عديـدة ! لا أصـدق أنَّنـي أعـرف هـذا الرَّجـل مـن قبـل، فقـد أعطيـت هـذا البغـل ذا الكـرش الكبيـر نقـوداً وهدايـا بوزنـه، قـال في نفسـه

ثـمَّ بـدأ الـكلام بسـؤاله عـن حالـه وحـال أسـرته فـردَّ عليـه العميـد بجـواب مقتضـب، وأردف أنَّـه يعـرف لـمَ جـاء لـه أبـو سـامح
وبـدأ بتوبيخـه على هـذه الفعلـة الَّتـي فعلهـا ابنـه، وكيـف لـه أن يقـف مـع الإرهابييـن، وأن يطالـب بإسـقاط السَّـيِّد المعظـم أسـد

وتابـع: إذا أنتـم -ياسـيِّد أبـو سـامح- سـتقفون في وجـه الرَّئيـس، فمـاذا نقـول عـن العامـة الرُّعـاع!
وتكلَّـم كثيـراً عـن مآثـر الرَّئيـس، ومـا قدَّمـه لأهـل حلـب وتُجارهـا وأبـو سـامح يسـمع وهـو مطـرق برأسـه ولايجـاوب إلَّا بكلمـة معـك حـقّ

وبعـد أن انتهـى مـن محاضرتـه قـال: لقـد تكلَّمـت مـع رئيـس فـرع الأمـن العسـكري، وصدقنـي إذا قلـت لـك إنَّ أمـره صعـب، وقـد اعتـرف أنَّـه منتسـب إلـى جماعـة الإخـوان المسـلمين الإرهابيَّـة الخائنـة، (على الرَّغـم مـن أنَّـه إلـى الآن لـم يسـتجوب ولكـن سـيادة العميـد أراد ابتـزازه) فتـح أبـو سـامح عينيـه كأنَّهمـا أصبحتـا بحجـم تفاحتيـن كبيرتيـن قـائلاً: ابنـي مـع جماعـة الإخـوان.؟ ولكـن يـا سـيادة العميـد ابنـي صغيـر ولـم يتجـاوز الخامسـة عشـرة مـن عمـره، وهـذا الصَّغيـر لا يعـرف مـن الحيـاة إلَّا مدرسـته، ونادیـه الرِّياضـي، أرجـوك أن تسـاعدني، وأنـا طـوع يمينـك

رفـع سـماعة الهاتـف وطلـب رئيـس فـرع المخابـرات العسـكريَّة وبعـد لحظـات كان معـه على الخـط

وبعد السَّلام سأله من هو المعتقل الَّذي لدينا، أجابه إنَّ المعتقل اسمه سامح، ومهما كانت التَّكفلة فإنَّه يريد أن يجد له حلًا

فهم أبو سامح من خلال كلام العميد أنَّ الرَّد جيد، والأمور بدأت بالتَّحلحل، بعد أن أقفل الخط اتَّجه العميد إلى الحاج قائلًا: تهمة ابنك خطِرة جداً. والأمر سيكلفك مئتي ألف دولار، ودون تفكير وافق أبو سامح فهو يملك أضعافاً مضاعفةً من هذا المبلغ، وابنه أغلى عنده من كنوز الدُّنيا

قال العميد:إذا كان المبلغ متوفراً فغداً سنذهب في السَّاعة الواحدة معاً إلى حيث هو سامح، عليك أن تأتي إليَّ قبل نصف ساعة من الموعد حياه بحرارة، وخرج مسرعاً إلى زوجته، الَّتي كانت تنتظره وكأنَّها جالسة داخل فرن حار ليبشرها بما حصل.

الإفراج المشروط

في زنزانة سليمان وسامح وبعد أن حاول المحقِّق أن ينتزع اعترافاً من سليمان بأنَّه وخليته حاولا تفجير وقتل عناصر الفرع، ولمْ يستطع، وصمد سليمان أمام كلّ وحشية المحقِّق وأزلامه، ومع التَّطور الجديد، فُتحت نافذة باب الزِّنزانة، وصاح الحارس على سامح الَّذي لم يُحقَّق معه إلى الآن أن أخرج، وضع يده على قلبه، فقد رأى ما حدث مع سليمان من ضرب وتعذيب

آه جاء الدور عليَّ وسألاقي ما لاقاه الآخرون. أخذه الحارس دون أن يركله أو يضربه إلى الطَّابق العلوي، ومنه إلى غرفة المحقِّق، ولكن لم يكن فيها أيّ أدوات للتعذيب، فهي فارغة إلَّا من طاولة وكرسي يجلس عليه المحقَّق وآخر جلس عليه سامح

سلَّم عليه بكلِّ أدبٍ وأحضر له كأس شاي، استغرب سامح لهذه المعاملة، فكلُّ من يخرج من الزِّنزانة للتحقيق، يرجِع وكأنَّ قطاراً مرَّ عليه

قال المحقِّق: ياسامح نحن لانريد أن نؤذيك، ولا أن نضربك، بل نريد أن تخرج إلى حياتك العادية، وأن تسترجع نشاطك الرِّياضي والمدرسي أنتم محسوبون علينا، فأبوك من الرِّجال الموثوقين في الدَّولة، وهو تاجر لم يعصِ الأنظمة، ولم يحارب الدَّولة، بل على العكس هو رجل مؤثر فيها وشريف، ونريد أن تكون مثل أبيك، وسوف نعتبرها هفوة ونصفح عنك، ولكن بشرط: أن تعترف على سليمان وبقيَّة المجموعة أنَّهم كانوا يخططون لنسف هذا الفرع بالمتفجرات وقتل من فيه، وأنَّهم جماعة إرهابيَّة خططوا لزعزعة الأمن في مدينة حلب وفي سوريا أيضاً، وسنعتبرك شاهداً ونغلق ملفك

وترجـع إلـى بيتـك ومسـتقبلك. ولكنِّـي لـم أرَ كل الَّـذي قلتـه، نحـن خرجنـا بمظاهـرة واحـدة ومشـينا عشـرة أمتـار فقـط، وتـمَّ الإمسـاك بنـا
أنت لا تعلم ياسامح ماذا كانوا يخططون.
إذا كنت لا أعلم، كيف لي أن أشهد بشيء لم أشاهده.؟

اِنتفـض المحقِّـق ألا تـرى أنِّـي أكلِّمـك بالحسـنى، هـل تريـد أن أضربـك كمـا أضـرب البقيَّـة.؟ اِذهـب إلـى زنزانتـك، وفكـر بالأمـر، إمـا أن تكـون شـاهداً أو تكـون متهـماً مجـرماً مـع هـؤلاء الشَّـراذم. قـرع الجرس،وطلـب مـن الحـارس أن يرجعـه إلـى زنزانتـه
عندمـا رجـع إلـى زملاء الزِّنزانـة وهـو في حالـةٍ صحيـة طبيعيَّـة، أوجـس كلُ من في الزِّنزانـة مـن سـامح خيفـةً، فكيـف لـه أن يذهـب ويرجـع سـليماً، بالتَّأكيـد هـو مخبـر مدسـوس بينهـم، إلَّا أن سـليمان اتَّجـه إليـه مطمئـناً عليـه، سـائلاً إيـاه: بـمَ اسـتجوبوك؟

سـألوني عـن المظاهـرات وعـن اجتماعاتنـا بالمسـجد، ولكنَّهـم لـم يضربونـي وعلى مـا أظـنُّ أنَّ أبـي أوصـى بـي، فأنـت تعلـم أنَّ لـه علاقـات واسـعة مـع موظفـي الدَّولـة ورؤسـاء الأفـرع الأمنيَّـة، صدَّقـه سـليمان ولكنّ باقـي المعتقلين لـم يصدِّقـوه، وحرصـوا على ألَّا يتكلمـوا بحضـوره عـن أيِّ شـيء، وأصبـح معـزولاً في الزِّنزانـة لايكلمـه إلَّا سـليمان
في الموعـد المحـدَّد جـاء أبـو سـامح إلـى سـيادة العميـد، الَّـذي اصطحبـه بسـيَّارته إلـى الفـرع الآخـر، دخلا الفـرع بعـد أن تعـرف الحـارس على العميـد، وألقـى عليـه تحيَّـة عسـكريَّة، صعـدا إلـى الطَّابـق الثَّانـي، حيـث غرفـة رئيـس الفـرع وقـد اسـتقبلهما بـكلِّ حفـاوة، فالاتِّفـاق تـمَّ، وأمـوال كثيـرة سـتدخل إلـى جيبيهمـا

بعـد كلام لايمـت للموضـوع بصلـة، طلـب رئيـس الفـرع مـن الحـارس أن يُحضـر الموقـوف سـامحاً، وتوجَّـه إلـى أبيـه قـائلاً

سـأحلُّ لـك الموضـوع برمَّتـه، ولكـن عليـك أن تقنـع ابنـك بالاعتـراف على الخليَّـة أنَّهـا كانـت تعمـل على التَّخريـب والتَّفجيـر، وهـذا هـو الحـلُّ الوحيـد حتَّـى يخـرج سـامح

كمـا تريـد يـا سـيادة العميـد سـأجعل ابنـي يكتـب كلُّ مـا ترونـه مناسـباً وقـد وافـق الحـاج لأنَّـه كان تـوَّاقاً لإخـراج ابنـه، وهـو في الأصـل تاجـر، وتعلَّـم مـن تجارتـه (يـا روح مابعـدك روح) فهنـاك كثيـر مـن التُّجـار مـن تعـدى على المهنة، فبعـد أن كان الشَّـرف كلّـه في التِّجـارة، صـارت مهنـة كثيـر مـن الأوبـاش والمرتزقـة، والمتعامليـن مـع السُّـلطة المنتفعيـن منهـا بشـكل غيـر شـرعي، وكان الحـاج أبـو سـامح واحـداً مـن أولئـك التُّجـار

وبالفعـل فُتـح بـاب الزِّنزانـة، وصـاح الحـارس على سـامح، ومـا إن خـرج، حتَّـى اقتـاده إلـى الطَّابـق الثَّانـي، إلـى غرفـةٍ بجـوار غرفـة رئيـس الفـرع، أدخلـه إليهـا وأغلـق البـاب
يـا اللـه مالَّـذي يجـري معـي! أسـوف يحبسـونني في هـذه الغرفـة المنفـردة! أم مـاذا سـيفعلون بـي! أيعلـم أبـي بأمـري! أم إنَّـه يبحـث عنـي دون فائـدة.! وبينمـا كان يحـدِّث نفسـه، فُتـح البـاب ودخـل الحـاج، ركـض إليـه واحتضنـه لدقائـق طويلـة باكـياً، وكأنَّـه لم يشـاهد أبـاه منـذ سـنوات، ردَّ الأب عليـه بالبكاء نفسـه، ثـمَّ سـحبه مـن يـده وأجلسـه بجانبـه على كرسـي آخـر وقـال لـه كيف حالك يا بني؟ أهناك من مسك بسوءٍ أو ضربك؟

الأمـر غيـر مهـم يـا أبـي المهـم أنِّـي رأيتـك وقـد ظنَّنـت أنِّـي سـأقضي العمـر في هـذه الزِّنزانـة الموحشـة

اليـوم سـأخرجك معـي مـن هـذا الجحيـم، ولكـن عليـك التَّوقيـع على ورقـة مكتوبـة، وتكـون شـاهداً على هـذه المجموعـة الَّتـي ورطتـك بهـذا العمـل الجبـان

ولكـن يـا أبـي لـم يكـنْ في المجموعـة أيُّ شـخصٍ حامـلٍ للـسِّلاح، ولـم يكـنْ أيُّ شـخصّ يريـد أن يفجـر أو يقتـل

يـا بنَّـي لا تُعِـدْ هـذا الـكلام على مسـامع أحـد، أنـا أبـوك وأعـرف مصلحتـك، وأعـرف مـا علينـا فعلـه، المجموعـة ستسـجن وقـد تعـدم بـكلِّ الأحـوال، فانـجُ بنفسـك، ولا تجعلنـي أنـا وأمَّـك نمـوت حسـرةً عليـك، ونعيـش بقيَّـة حياتنـا في ضيـق وكـرب شـديدين لأجلـك

الآن سـيدخل المحقِّـق، وكمـا يريـد عليـك أن توقـع، وتكتـب أنَّـك شـاهد في حـال اسـتدعاك القضـاء
كما تشاء يا أبي فأنت تعلم كلَّ شيء في هذه الحياة.
خـرج أبـو سـامح، ودخـل المحقـق بعـد لحظـات، وبيـده ورقـة ملأهـا بـكلِّ الافتـراءات والكـذب
بصم سامح ووقع على تعهد أنَّه سيشهد أمام القضاء.
فأخرج الحاج(شيكاً)بالمبلغ، وسلَّمه لصاحبه العميد.

فمـا كان منـه العميـد إلَّا أن مزَّقـه وطلـب منـه المبلـغ نقـداً، لأنَّـه لا يقبـل إلَّا أمـوالاً نقديـة
ردَّ الحـاج قـائلًا: بعـد خروجنـا مـن الفـرع سـنتجه إلـى أقـرب بنـك ونسـحب منـه المبلـغ المتفـق عليـه، هـزَّ العميـد رأسـه بالرضـى، وخـرج الحـاج ممسـكاً بيـد ابنـه، وكأنَّـه حصـل على كنـز ثميـن، أو أنَّـه ظفـر بمـاء الحيـاة، ليهـب لـه الخلـود في الدُّنيـا، والمغفـرة بالآخـرة

في السَّـيارة الَّتـي جمعتهمـا والعميـد، أعطاهمـا محاضـرة في الشَّـرف والوطنيَّة وحـبِّ الأرض والإخلاص للقائـد المفـدى الملهـم الخالـد، والتَّضحيـة مـن أجلـه، وبعـد أن سـحب الحـاج المبلـغ مـن البنـك سـلَّمه لهـذا المدَّعـي الشَّـرف والوطنيـة، وقـد أوصلهمـا إلـى مـكان وقـوف سـيَّارة الحـاج، ورجـع إلـى مكتبـه

ليستمر في خدمة الوطن وقائده ويحميه من شرور الأعداء والمتربصين بهذا القائد المغوار الممانع

وصلا البيت، وكانت أم سامح تنتظره بفارغ الصَّبر على شرفة المنزل، وما إن رأتهما، حتَّى أطلقت زغرودة سُمع صداها في كلِّ شوارع حلب، نزلت السُّلَّم بسرعة الغزال، وخلال أقلَّ من دقيقة كانت تحتضن وحيدها، الذي ردَّه الله إليها بعد أن فقدت الأمل
يا الله ماهذا النِّظام! وما هذه الدَّولة! الَّتي لأجل خطأ بسيط أو فعلٍ غير مقصود، قد تودي بصاحبه في غياهب السُّجون أو تنهي عمره.؟؟

اِصطحبت وحيدها صاعدة السُّلَّم كما نزلته راكضةً ممسكةً يده بقوةٍ لم يعهدها سامح من قبل في أمِّه، وصلت وأغلقت الباب، حتِّى إنِّها نسيت الحاج خارجاً، لايهم أيّ شيء المهم أنَّها استرجعت ابنها من الموت، قامت أخته مسرعةً وفتحت الباب للحاج الَّذي ركض باتِّجاههم وضمهم بكلتا يديه، قائلاً: ما دمت حيِّاً فلن أسمح لأحدٍ أن يمسَّ شعرة من رأسكم(طبعاً والنِّعم منك يا حاج، فقد خوزقت شباباً من بني جلدتك، وبعثت بهم إلى حبل المشنقة، لأجل أن تُنجي ابنك، بعد أن أجبرته على شهادة الزُّور، ولكن هل تعتقد أنَّ القدر سينسى لك هذه الخيانة)

أما أبو سليمان الموظَّف الفقير المسكين وزوجته، فقد حاولا أن يعرفا طريق ابنهما، ولكن عبثاً، وقد نما إلى سمعهما أنَّ صاحبه الَّذي كان يرافقه خرج من فرع الأمن العسكري، قالت أمُّ سليمان وقد نضبت عيناها من البكاء لزوجها: أرجوك أن تذهب إلى بيت أهل سامح، وتستطلع لنا ما يعرفه عن ابننا، فقد أُفرج عنه، وخرج من سجن فرع الأمن العسكري، وما إن سمع أبو سليمان بهذا الخبر، حتَّى نزل من بيته، واِستقل سيَّارة أجرة بسرعة، وهذا لم يكن يفعله كثيراً، فهو لا يتنقَّل إلَّا بالحافلة، فميزانيته لا تسمح له بركوب سيَّارات الأجرة، ولا يفعلها إلَّا في الحالات الحرجة

طار إلى سوق المدينة متَّجهاً إلى دكان أبي سامح فدخل الدُّكان وسلَّم عليه وعرَّفه بنفسه، وما إن سمع الأخير باسمه حتَّى تغيَّر لونه وصرخ بوجهه قائلًا: يا أخي هذا المحل لك وبعنا إيِّاه، وإذا سمحت لا تأتِ إلى هنا ثانية، تفاجأ أبو سليمان بتصرف الحاج قائلًا: ولِمَ هذا الرَّد القاسي..؟؟ ألَّا يكفي أنَّ ابنك ورَّط ابني.؟ ألَّا يكفيكم أنَّ ابنك إرهابيٌّ كان سيقتل كثيراً من شباب بلدنا وجيشه !! أنتم مخربون وعملاء، ومستواكم لا يليق بمستوانا، اُخرج من دكاني حالاً، قبل أن أخبِّر الأمن عنك ليأخذوك من تلابيبك كما فعلوا بابنك المخرِّب

خرج أبو سليمان مكسور الخاطر، غير مصدِّق ما سمعه من هذا الرَّجل الوقح، متسائلًا في نفسه: هل ابني إرهابيُ حقاً! هل ابني قاتلُ ! ما بال هذا الخرِف يُخرج من فمه كلاماً لا يفهمه، زادت هموم الدُّنيا على رأسه همَّاً آخر، ورجع إلى بيته يجرُّ قدميه وكأنَّه يحملهما بدلاً من أن تحملاه، ولم يشأ أن يخبر زوجته بما حصل معه وكيف ردُّ الحاج، وكيف كان لقاؤه غير المتوقع، وعندما ألحَّت عليه بالسُّؤال أجابها: إن سامحاً لا يعرف أيّ شيء عن سليمان فهو لم يره منذ أن اُعتُّقلا

الرَّحيل عن حلب

أمَّا أمُّ سامح، فقد تغيرت حياتها بشكل جذري، فلمْ تعد تلك المرأة المحبة للحياة، ولمْ تعد تلك المرأة المنطلقة للسهر واللَّهو، حتَّى مع صاحباتها لمْ تعد تخرج معهنَّ وانطوت في بيتها على نفسها، تعدُّ الأنفاس على ابنها إذا هو خرج إلى لمدرسة، اِنتظرته على شرفة المنزل عندما يحين وقت رجوعه، ودائماً تنبهه بألَّا يتكلَّم مع أحد، ولا يصاحب الغرباء وطبعاً تقصد الغرباء أيّ شخص خارج العائلة، وعليه ألَّا يتأخَّر في طريقه للمدرسة وحتَّى النَّادي الرِّياضي الَّذي أحبَّه جعلته يتركه ويلتزم بيته، فلا يخرج منه إلَّا للمدرسة منه

أما الحاج فتابع تجارته بشكل طبيعي، وداوم على زيارة العمداء والعقداء، وتابع دفع الأتاوات والعطايا لهم فقد تخطى هذه المرحلة، وخرج منها هو وابنه على خير حال

ولكن سامحاً حمل وزراً لا يعرف كيف سيتخلَّص منه، وما نتائجه! وكان دائم السُّؤال في نفسه: عمَّا حلَّ بسليمان وصحبه وإذا ما كانوا على قيد الحياة! أم أنَّه وأباه أوصلا الشَّباب إلى حبل المشنقة.؟ أراد كثيراً أن يذهب لبيت أهل سليمان وأن يحضن أباه وأمّه ويقبِّل أقدامهم، ويطلب منهم الصَّفح والمغفرة، ولكنَّه لم يتجرأ على الذَّهاب والنَّظر في عيون والديّ سليمان، وهو مشترك بجريمة قتله، وظل هذا الهاجس مرافقاً لسامح حتَّى في أحلامه

كان قبل هذه الحادثة ينظر إلى أبيه التَّاجر الغني، بكلِّ كبرياء وفخر، ولكن الآن كلَّما رآه شعر أنَّه ربما يكون قاتلاً، أو مخبراً متعاملاً مع نظام

مجـرم، لـم ينـسَ نظـرات سـليمان لـه، عندمـا اِتَّهمـه نـزلاء الزِّنزانـة بالخيانـة، فقـد كانـت نظراتـه تقـول: لا تخـف أنـت شـقيقي وأنـا أثـق بـك إلـى حـد كبيـر لا يتصـوره أحـد، أنـت ياسـامح صديقـي وأخـي، ولـن أتخلـى عنـك

لقـد كان سـليمان نِعـمَ الصَّديـق والأخ، لقـد خنـت أنـا وأبـي كلّ شـيء جميـل، قـد غدرنـاه وأرسـلناه للمـوت، كـمْ أنـت أنانـي يـا أبـي.! وكـمْ حملـت وسـتحمل أوزاراً وذنـوباً لا أسـتطيع أن أغفرهـا لنفسـي! فكيـف سـأغفر لـك يـا أبـي! فقـد جعلـت حياتـي جحيـماً، وجعلـت مسـتقبلي أسـود كليـلٍ حالك الـظلام لا بصيص نـور فيـه، لـو أنَّـك تركتنـي لمصيـري كان أشـرف بـآلاف المـرَّات مـن هـذا العـذاب الَّـذي رميتنـي فيـه

لقـد تغيَّـر سـامح، وتغيَّـر مزاجـه، لـم يعـد ذلـك الطِّفـل المحـبُّ لوالديه وأسـرته، فقـد ابتعـد عـن أسـرته، وخاصَّـةً عندمـا كلَّـم والدتـه وشـرح لهـا مـا فعـل أبـوه ليخرجـه مـن الفـرع، وأجبـره على التَّوقيـع على شـهادة زورٍ، فمـا كان مـن زوجـة الحـاج المثقَّفـة المتعلِّمـة، إلَّا وقالـت: يـا بنـي نحـن لا نقـف بوجـه السُّـلطة، وليـس لنـا علاقـة بالقتـل والإجـرام، لقـد حـاول صديقـك تهديـد الأمـن الوطنـي فنـال جـزاءه، اللـه يرضـى عليـك لا تعـد لهـذه السِّـيرة فَنِعـمَ مـا فعـل أبـوك
ولكـن يـا أُمِّـي قـد شـهدت شـهادة زور، فلا صديقـي بمجـرمٍ ولا الشَّـباب الَّذيـن كانـوا معـه بقتلـة
هـل تسـتطيع أن تقـدر الأمـور أكثـر مـن أبيـك ؟ أو مـن الدَّولـة.؟ لا تتكلَّـم بهـذا الأمـر ثانيـة فهـم يسـتحقون الجـزاء وقـد أخـذوا نصيبهـم وانتهـى الأمر(حـقاً يـا زوجـة الحـاج الطُّيـور على أشـكالها تقـع، والطَّيبـون للطيبـات، لـو لـمْ تكونـي كزوجـك الحـاج لما اسـتطعتي أن تعيشـي معـه، كلـوا واشـربوا فلكـم وقـت لـن يؤخـره الله)وهـذا مـا جعـل سـامحاً أكثـر انعـزالاً وانـغلاقاً على نفسـه، حتَّـى إنَّـه تمـر الأيـام ولـم يكـن يتكلَّـم مـع أبيـه وأمِّـه
انتهـت السَّـنة الدِّراسـيَّة ومـا بعدهـا وأكمـل سـامح دراسـته الثانويـة، وقـد اقترحـت الأمُّ على أبـي سـامح أن يرسـله إلـى فرنسـا ليـدرس الطِّـب، ولتخرجـه

من حالته السَّيئة الَّتي دخل بها، ولم يعرفا كيف يخرجانه منها إلى الآن والحقيقة أن أمَّ سامح لم تشعر بالأمان طالما أن ابنها في حلب، وطالما أنَّه في أيِّ وقت قد يعتقل، فهذا النِّظام لا أمان له، وهي تعرف أنَّه نظام قاتل ولكنَّها مثل كثير من السُّوريين تخاف من حيطان بيتها من أن تسمع أفكارها.

أجابها الحاج: لنِعَمَ الرَّأي والله، فأنا الآن الحاج أبو سامح، وغداً سأكون أبا الدُّكتور سامح، وسيأتيني بشهادة أعلقها في صدر دكاني، لأغيظ كلَّ جيراني، فمن الغد سأقدِّم أوراقه إلى أعرق جامعة في فرنسا
وفي اليوم التَّالي جاء الحاج بوجهٍ بشوش، قائلاً لزوجته: لقد قدَّمت أوراق سامح لجامعة (باريس سود) وهي من أرقى الجامعات الفرنسية للطب، تقع في الحيِّ الجنوبي لباريس، وقد أخبروني أنَّ الرَّد سيأتي خلال أسبوع، فحسابي البنكي وصفقاتي التِّجارية ساعدتني في تقديم الأوراق

وبعد أسبوع جاء القبول ولم يكن سامح يعرف أيَّ شيء عن الموضوع، وما إن أخبرته أمُّه، حتى ارتدَّت الحياة إلى نفسه، وملأت الابتسامة وجهه، ولكنَّه لم يستطع أن يشكر أباه فهو لن ينسى خيانته

أسرعت زوجة الحاج بتجهيز متاع سامح، ورتبت له كافة أموره، حتَّى تُنزل همَّه عن كتفها، وتُخرجه من هذا البلد الظَّالم نفسه إلى حيث الأمان والطُّمأنينة، فما زالت خائفة عليه، منذ أن نجا من المعتقل.
غداً سأسافر قال سامح لأخته: وقد لا نرى بعضنا ثانية، غداً سأسافر يا أختي وفي قلبي جرح لن يندمل، هل تعلمين يا أختي أنِّي لم أنسَ سليمان وصحبه يوماً! هل تعلمين أنَّهم يعيشون معي في خلوتي ومدرستي ونومي وحتَّى في أحلامي! آه يا أختي لو تعلمين كمْ أنا نادم! ولائم نفسي وأبي وأمِّي! أتمنَّى لو أستطيع في يوم ما أن أُخرج كلّ هذا الهمَّ من قلبي

وفتح باب بيته دون أن ينتظر جواب أخته وانطلق إلى حيِّ الجميليَّة، حيث بيت أهل سليمان، قرع الباب ففتحت أم سليمان وفوجئ أنَّها كبرت عشرات السِّنين، وانحنى ظهرها كعجوز شمطاء نظرت إليه قائلة: هل أنت سامح صديق ابني.؟
أجل أنا هو يا خالة.

أمسكت يده وقبَّلها مراراً وتكراراً، وبكت بكاء مرَّاً لو سمعه الصَّخر لتفتت،
آه يا حبيبي ويا بني سامحُ أنت من رائحة الغالي سليمان، وسحبته داخلةً إلى البيت
كيف حالك يا حبيبي وكيف حال أهلك..؟
الحمد لله بخير يا خالة، أين عمي أبو سليمان ؟
أشاحت بوجهها، وتابعت ببكاء أشدّ.

آه على حالنا، لقد مات عمك أبو سليمان منذ ستة أشّهر، مات حزناً وكمداً على صديقك، لم يتحمل قلبه الضَّعيف فراق ابنه الطَّويل فأسلم روحه إلى بارئها كي يرتاح بلقاء ربه
وقف وقد أصابته الصدمة.
هل فعلاً عمي أبو سليمان مات؟ صرخ في داخله صوت مكتوم حاول أن يخرجه حتَّى لا يقف في حنجرته فيخنقه
نعم يا بني مات وارتاح من هذه الدُّنيا، ومن هذا الغم، ارتاح وذهب إلى ربٍّ كريم، هو من يعطي الحقوق، وهو من ينصر المظلوم، ويقتصُّ من الظَّالم
وكأنَّ سيفاً بتاراً اِخترق في قلب سامح ولمْ يخرج، وكأنَّه طُعن في فؤاده آلاف المرَّات

هل تقصدني بهذا الكلام..؟ أم أنَّه كلام عابر تساءل في نفسه؟
حاول أن يغيِّر الموضوع، فسألها: وكيف صحتك يا خالة..؟

كما تراني يا بني، من مرض إلى مرض، لقد كسر غياب صديقك سليمان ظهورنا، وجعلنا كريشة في مهب الرِّيح
ألم تسمعوا أيَّ خبر عن سليمان..؟؟

والله يا بني بعد أن اُعتقلتما، لم نستطع أن نصل إليه، وقد سأل المرحوم عمك أبو سليمان أباك فقال إنَّك لم تره، ففقدنا كلِّ أملٍ في الوصول إليه، ومنذ ذلك الحين لم نسمع عنه شيئاً
وكيف سيخبرك أبي أنَّا قتلنا ابنك يا خالة! وكيف سيقول لك بأنَّنا كنا سبباً في تحطيمك وموت زوجك وتحطيم عشرات الأشخاص ممَّن كانوا مع ابنك! قال في نفسه وأردف: يا خالة أنا مثل ابنك سليمان وكلُ ما تطلبينه حاضر

ردَّت بصوت حزين زاد في جراح سامح: أنت ابني الثَّاني ولا أريد منك إلَّا الدُّعاء لفك أسر سليمان، تنهد طويلا قائلًا: بإذن الله سيخرج قريباً
وكيف له أن يخرج يا خالة! وهو متهم بالقتل والتَّفجير ومعاداة السَّيِّد الرَّئيس، وزعزعة الأمن والاستقرار، نعم يا خالة كلُّ هذه التُّهم توجهت لسليمان وأنا كنت شاهد زور، نعم ياخالة أنا من سجن ابنك وقتله وقتل رفاقه، قال في نفسه: بعد أن بدأت عيناه بذرف دمع اِختبأ في داخله سنوات وقد حان وقت خروجه
بكى طويلًا ولكنَّه لم يستطع أن يبوح بما في قلبه أو بما فعله هو وأبوه الحاج
بكى بحرقة عسى أن تطهر الدُّموع ما اقترفته يداه.
ثمَّ ودَّعها قائلًا :إنَّه مسافر إلى فرنسا ولن ينساها، وسيديم الاتِّصال بها فهي كأمِّه، خرج من بيت صاحبه سليمان ومشى على غير هدى
مشى ومشى لساعات طويلة، وكلَّ ما دار في عقله أنَّه والحاج مجرمان حقيقيان، لو أن هناك أيّة مساحة من العدل في هذا البلد لحاكمهما القضاء بقطع رأسيهما

وصل بيته متأخراً فتح الباب فوجد الحاج وزوجته وقد علا القلق وجهيهما، أراد الحاج أن يوجه اللَّوم إلى سامح، لولا أنَّ الأمَّ ضغطت على قدمه، فابتلع الكلمات فبقيت حبيسة فمه، اتَّجه سامح إلى غرفته وبعد أن أغلق الباب، قالت له أم سامحٍ

يا رجل الولد غداً سيسافر، ولا نريد تعكير الجو معه، ألَّا ترى مزاجه غير المستقر
أجل غداً يرتاح ويريح هكذا أجاب الحاج.
مضت اللَّيلة على خير وكانت طائرة سامح في السَّاعة العاشرة، ولكنَّه لم يستطع أن ينام ولم يغمض له جفن، فأمُّ سليمان لم تغب عن باله، ولكن غداً سأرمي كلّ شيء وراء ظهري، وانطلق إلى حياة ثانية، يكفيني ما لاقيته في حياتي في هذا البلد، وسأنسى أنِّي سوري من الغد سأكون فرنسياً قولاً وعملاً قال في نفسه

باكراً خرجوا جميعاً من البيت، بعد أن حمل سامح حقيبة أغراضه، ووضعها في صندوق السَّيارة الخلفي،جلس هو وأخته على المقعد الخلفي، وطيلة الطَّريق إلى المطار وأمُّه وأبوه يوصيانه بكلِّ التَّوصيات، الَّتي قد تخطر أو لا تخطر على بالِ أحد
وصلوا إلى صالة الانتظار، ودَّع والديه على عجل دون بفتور شديد واِحتضن أخته طويلاً فهي لا ذنب لها بما حصل، وانطلق حتَّى دون أن يلقي أيّ نظرةٍ على أبويه

قال الحاج:
هل رأيت يا أمَّ سامح..؟
أجابته: الله يوفقه الظَّاهر أنَّه مشوش الذِّهن وفكره تائه وخائف من المجهول فهو يسافر أوَّل مرَّة وحده، الله يوفقه ويحميه، اُدعُ له يا حاج بالتَّوفيق

هـزَّ الحـاج رأسـه، وِالتفـت عائـداً إلـى تجارته، وأرباحـه وتملُّقـه لجماعة السُّـلطة ولقـادة الفـروع، وكأنَّـه لـم يرتكب أيّ شـيء
أقلعـت الطَّائـرة متِّجهـة إلـى باريـس مدينـة هـروب سـامح مـن كلِّ التَّبعـات والأفـكار

هنـا في فرنسـا سأنسـى صديقـي الَّـذي أعدمـه الحـاج وهنـا سـأركل كلَّ ماضـيّ الَّـذي أتعبنـي، لـن أنظـر إلـى الخلـف وإلـى حلـب بلـدي التَّـي نشـأت فيـه وأحببتـه، سـأتركها للسُّـلطة الغاشـمة وللعـملاء كأبـي، ولكنِّـي سـأتذكَّر كلّ شـيءٍ جميـلٍ عـن أصدقائـي وعـن النَّـادي الَّـذي أحببتـه وعـن ذكريـات الطُّفولـة التَّـي تمنَّيـتُ لـو أنِّـي مـا كبـرت، آه كـمْ تمنَّيـت لـو أنِّـي بقيـت صغيـراً ممسـكاً بذيـل فسـتان أمِّـي! وجالـساً في حضـن جدتـي، آه لـو أنَّ أبـي بقـي في نظـري ذلـك العـملاق الَّـذي لا يُقهـر ولا يَظلـم، ولكـن كلُّ شـيء تغيـر بعـد أن سُـجنت في تلـك الزِّنزانـة المشـؤومة، التَّـي جعلـت حياتـي جحيـماً وجعلتنـي أهـرب مـن كلِّ مـا يمـتُّ إلـى الماضـي بصلـة، آه ياحلـب يـا موطنـي ويـا شـارعي ويـا بيتـي كـمُ أردت ألَّا أتـركك ولـو للحظـات! كـمْ عشـقت غرفتـي وكـرة السَّـلَّة التَّـي كانـت تنـام بجانبـي لتأخذنـي كلّ يـوم إلـى أحلامِ البطولـة والتَّفـوق! حتَّـى إنِّـي سـافرت ولـم أودِّع أحـداً مـن أعضـاء فريقـي، ولا مدربـي، لـم أشـأ أن أقـول لهـم إنَّـي تخليـت عنهـم، أو خنتهـم، فهـذه الكلمـة تجعـل الدِّمـاء تفـرُّ مـن قلبـي، كنهـرٍ جـار يأبـى التَّوقـف، قطـع شـروده صـوت يطلـب مـن الـرُّكاب الأعـزاء ربـط الأحزمـة، فالطَّائـرة في حالـة هبـوط

الاعتماد على النَّفس

لـم تمـض إلَّا عشـرون دقيقـة حتَّـى خـرج سـامح مـن طائرتـه متَّجـهاً إلـى موظَّـف ختـم الجـوازات، وبعـد أن أنهـى إجراءاتـه عَبَـرَ الصَّالـة إلـى بـاب الخـروج والحـاج متابعـه عـن بعـد، فقـد أرسـل إليـه صديقـه القديـم الحـاج غانـم، لأجـل أن يسـتقبله، وكان معـه ابنـه وليـد، تفاجـأ سـامح عندمـا رأى شـاباً يحمـل ورقـة كتـب عليـه اسـمه، اتَّجـه إليـه قـائلًا :أنـا سـامح مـن حلـب هـل هـذه اللَّوحـة لي

فاحتضنـه وليـد وعَرَّفَـهُ عـن نفسـه، واقتـاده إلـى والـده الَّـذي رحَّـب بـه وأشـاد بأبيـه وأخلاقـه ومعاملتـه الحسـنة وطيبـة قلبـه
صحيـح يـا حـاج أبـا وليـد لـو كنـت تعرف مـا أعرفـه لبصقـت بوجهـي ولضربتني بحذائـك، ونظـر إلـى حذائـه وتابـع في نفسـه: لا اعتقـد أنَّك ستخسـر علـيَّ هذا الحـذاء الجديـد، فأنـا وأبـي لا نسـتحق إلَّا الضَّرب بحـذاء بالٍ

واِسترسـل أبـو وليـد بتعـداد مناقـب الحـاج أبـي سـامح، إلـى أن خرجـوا مـن المطـار، وركبـوا سـيَّارة الحـاج الحديثـة، فهـو رجـل أعمـال وصاحـب تجـارة كصديقـه أبـي سـامح
انطلقـوا إلـى الحـيِّ الجنوبـي مـن العاصمـة الباريسـية، حيـث قـام أبـو وليـد باسـتئجار بيـت لسـامح، يتألـف مـن غرفـة واحـدةٍ وصالـون صغيـر بداخلـه المطبـخ ومنافعـه، حسـب طلـب أبـي سـامح فهـو لـم يتـرك ابنـه سـابقاً ولـن يتركـه لاحـقاً داخـل سـوريا وخارجهـا، ومـع هـذا كلِّـه لـم يكـن سـامحُ ممتنـاً مـن عمـل أبيـه
قـال أبـو وليـد: لقـد اسـتأجرت لـك بيـتاً قريـباً مـن بيتنـا ومـن جامعتـك وهـذا مـن حسـن حظنـا أنَّنـا نسـتطيع التَّواصـل معـك بشـكل دائـمٍ، فأنـا سـأقوم

مقام أبيك، وابني تعتبره أخاً لك من اليوم، وأيُّ شيء تريده فما عليك إلَّا أن تطلبه مني، فلن أتأخر عليك، فأبوك له في رقبتي كثير من الدُّيون والحقيقة أن أبا سامح كان قد ساعد أبا وليد في مسألة أمنيَّة كانت من الممكن أن تودي به إلى غياهب السُّجون لولا تدخله

ففي إحدى المرَّات كان بعض الأشخاص من جواسيس أسد، قد كتبوا تقَّريراً أمنياً أنَّ أبا وليد مناهض للحكومة، وقد سأله العميد عن أبي وليد وأخبره بمضمون التَّقرير، بعد أن عرف العميد أنَّه صديق له ولأجل ابتزازه وكما توقع العميد دفع أبو وليد ثمن تمزيق التَّقرير، وخرج أبو سامح بوجه أبيض، مع سيادة العميد، وصاحبه أبي وليد، الَّذي استطاع أن يدخل إلى سوريا مرَّة أخرى، دون أن يُعتقل، وقد كان مضطراً لزيارتها، لمتابعة أمور مصنع النَّسيج الَّذي يملكه قرب حلب
المهم أنَّ الحاج أبا سامح لم يدفع شيئاً، وربما يكون قد سمسر بعض الأموال من الاثنين، وهذا غير مستغرب عنه

وصلوا إلى بيت سامح الجديد، فاقترح أبو وليد أن يضع متاعه، وينزل حتى يستدلَّ على بيتهم ويتناولوا طعام الغداء معاً، ساعد وليدُ سامحاً بحمل الأغراض إلى المصعد وصعدا إلى الدَّور الثَّامن، كان بيت سامح بجانب المصعد على يمين البناء، فتح الباب ووضعا الأغراض ونزلا بسرعةً دون أن يلقي نظرة على بيته الجديد، فأبو وليد ينتظر ومن المعيب أن ندعه ينتظر طويلاً
سامح شابٌ ذو أخلاقٍ طيبة، فهو يشبه جده لأمِّه، فقد كان دمث الخُلق حافظاً ومعلِّماً لكتاب الله في أحد جوامع حلب مربياً فاضلاً، على الرَّغم من أن أمَّه قد تأثَّرت بأبيه الحاج، ولكن دائماً كان يرى في وجهها هذه الطِّيبة والنَّبتة الحسنة، الَّتي لم يرها بأبيه وجده لأبيه، الَّذي عمل بالتِّجارة وكانت بعض من أمواله عن طريق الرِّبا، كما سمع سامح في إحدى المرَّات من بعض تجار سوق المدينة، عندما كان يذهب إلى دكان أبيه

ركبوا السَّيارة واعتذر سامح للحاج أبي وليد عن تأخره، وأن المصعد بطيء الحركة

أجابه أبو وليد: لا تشغل بالك، أهلاً بك ياسامح بين أهلك، وأشار إلى بناء قائلاً:

هنا بيتنا ولا يفصله إلَّا شارع عن بيتك، نزلوا من السَّيارة وصعدوا إلى الطَّابق الثَّاني دون أن يستعملوا المصعد، فلا حاجة له، فالسَّلالم قصيرة وأبو وليد شديد الحرص على صحته، يحاول أن يكون رياضيَّاً في كلِّ أموره، قرع الباب ففتحت أمُّ وليدٍ، وكانت في منتصف الأربعينات ذات ملامح طيبةٍ سلَّمت على سامح بابتسامةٍ واسعة، وطلبت منه التَّصرُّف كأنَّ البيت بيته، فلم يكن في البيت إلَّا هي وزوجها ووليد، ولها ابنتان متزوجتان، إحداهما في حلب، والأخرى في إيطاليا، فلا مشكلة بوجود الشَّاب سامح بينهم.

قامت أمُّ وليد لتحضِّر طعام الغداء وساعدها ابنها، بينما جلس أبو وليد سائلاً عن حال البلد، مستفسراً وعن كلِّ كبيرةٍ وصغيرة، وما آلت إليه الأوضاع المعيشية، والأمنيَّة، في حال حكم الدِّكتاتور حافظ فقد تكلَّم أبو وليد بجرأة لم يكن ليفعلها لولا أنَّه يثق ثقةً عمياءً بأبي سامح وطبعاً هذا ابنه، ممَّا جعل سامحاً يتكلَّم بكلِّ صراحة ووضوح عمَّا يجول بخاطره، وقص عليه ما شاهده في اِعتقاله قبل عامين ونيف، وعن المآسي الَّتي مرَّ بها في غرف الاعتقال، ولكن قصَّته كانت ناقصة، فهو لم يجرؤ أنْ يكملها، حقاً هي قصَّة ناقصة بفعلها، وتابع أبو وليد شارحاً له كيف أن أباه أنقذه من يد هؤلاء الظَّلمة، الَّذين لا يخافون الله ضحك كثيراً في سرِّه، ضحك من شدَّة الألم، لِما يعرفه ويخبئه في صدره، هزَّ رأسه حقاً إنَّ أبي يا عمِّي يده للخير طويلة، ولا يأبى فعل الخير في كلِّ الأزمان(إلي بيعرف بيعرف وإلي مابيعرف يقول كف عدس) حدَّث بها نفسه. وآه تكاد تخرج من داخله حارقة كلّ ما تراه

جـاء الطَّعـام وتوقـف الحديـث، ولكـن كـمْ شُـرح صـدر سـامح! فهـو قـد فـرَّج عـن مـا في نفسـه، واسـتطاع ولـو لمـرَّة واحـدة، أن يتكلَّـم مـع شـخص حـيٍّ وواعٍ عـن النِّظـام وجبروتـه، وسـيعيد الكـرَّة فهـو في فرنسـا، ويـد النِّظـام لـن تطالـه، فهـذه بلاد العـدل والدِّيمقراطيَّـة وحقـوق الإنسـان، ليـس كبلادنـا حتَّى الحيـوان لـه فيهـا حقـوق أكثـر مـن الإنسـان في بلادنـا

انتهـوا مـن تنـاول الطَّعـام، وقـد أقسـم سـامح في نفسـه، أنَّـه لـمْ يـذق مثـل طيبتـه منـذ أيـام جدَّتـه لأمِّـه، فكـمْ كان يحـبُّ أن تطعمـه بيدهـا! وكـمْ كانـت حنونـة عليـه! وكـمْ كان يرتـاح بالرَّغـم مـن صغـره عندمـا يكـون في بيتهـا وبيـن أحضانهـا! بـخلاف أمّ أبيـه فقـد كانـت شـديدة الغلاظـة، غيـر مباليـة بـه ولاحنونـة عليـه، وكأنَّ أمـوال الرِّبـا دخلـت إلـى قلبهـا فجعلتـه حالـك الـظَّلام، وجعلـت منـه قلـباً قاسـياً، كجبـال جـرداء تضربهـا الشَّـمس كلّ صبـاح

طلـب الإذن مـن عمِّـه أبـي وليـد للذَّهـاب إلـي بيتـه، لينـالَّ قسـطاً مـن الرَّاحـة. فرحلتـه كانـت طويلـة، وغـداً -إن شـاء اللـه- سـيلتقي بهـم، أشـار الحـاج إلـى ابنـه وليـد أن يرافقـه إلـى بيتـه، ليتأكَّـد مـن أنَّـه تَعَـرَّفَ على الطَّريـق بشـكل جيـد، خـرج وليـد مـع سـامح، ونـزلا السُّـلَّم بسـرعة الشَّـباب، خارجيـن باتِّجـاه بيتـه، قـال سـامح: هـل تعلـم أنَّـي أحسـدك على أبيـك؟
أجابـه وليـد: واللـه أبـي أعظـم أبٍ بالعالـم، كـمْ أحبُّـه واحترمـه! وأيـضاً أبـوك بحسـب مـا أخبرنـي أبـي أنَّـه جيـد

أجـل أجـل، قـال سـامح :وبـدَّل الموضـوع فأصبـح يسـأل عـن معالـم البلـد، وأنِّـه يريـد أن يـزور بـرج إيفـل، وشـارع الشَّـانزلزيه، فقـد سـمع عنهمـا كثيـراً وهـو تـوَّاق لرؤيتهمـا

وعـده وليـد أنَّـه سـيصحبه في جـولات إلـى معالـم فرنسـا، ولا تنـسَ قصـر فرسـاي فهـو مـن أهـم المعالِـم الباريسـيَّة

وما إن وصلا إلى بنايَّة سامح حتَّى ودَّع وليداً بعد أن دعاه للدخول، فأجابه: إنَّ الوقت قد تأخر وعليه العودة، وسيتركه ليرتاح من أعباء السَّفر، صعد سامح إلى طابقه الثَّامن، دخل بيته وقام بتفقُّده، أجل هو مرتب ونظيف وكلُّ أثاثه جديد، حسناً هو مناسب جداً وسأكون سعيداً لأنَّني أوَّلاً ابتعدت عن بيتي في حلب، والأمر الآخر سأسكنُ وحدي، وأُكَوِّنُ مستقبلي بيدي ولن أدعَ أبي يتدخل بمستقبلي بعد الآن

أمضى ليلته الأولى في منزله الصَّغير وقد كان في غاية السَّعادة، فهو من الآن أصبح حرَّ نفسه، وسيبحث عن عمل ليتدبَّر أموره بغير نقود أبيه،

وسيحاول ألَّا يأخذ فلساً واحداً بعد الآن منه.

العمل في منظمة حقوق الإنسان

في السَّاعة العاشرة رنَّ جرس الهاتف كان المتصل وليد.
صباح الخير ننتظرك على الإفطار في بيتنا، لا تتأخر.
ربع ساعة وأكون عندكم.

جهَّز نفسه ولبس ثياب الخروج، واتَّجه إلى بيت وليد.
استقبلته أمُّ وليدٍ بكلِّ عطف وحنان، وأدخلته فوراً إلى غرفة الطَّعام، سلَّم على وليد وأبيه، ما إن انتهوا حتَّى اقترح الأب على سامح أن يذهب معهم إلى مكتبه ليريه قسماً من أعماله، فوافق بكلِّ اِمتنان
خرجوا متَّجهين إلى المكتب وقد وصلوه بعد نصف ساعة، وكان سامح مندهشاً بما يراه في مدينة النُّور الباريسيَّة من ترتيب ونظافة شوارع وسيَّارات حديثةٍ، وحدائق غناءٍ وأسواقٍ واسعةٍ كبيرةٍ، لو أراد المرء أن يتعرَّف عليها، لما كفاه شهرٌ من الزَّمن

وصلوا إلى المكتب وكان عبارةً عن صالة كبيرةٍ، وثلاث غرف بجانبها، فكلّ إنتاج مصنع أبي وليد في حلب من الأنسجة، يأتي إلى هذا المكتب، ثمَّ يوزع إلى فرنسا، وباقي المدن الأوروبيَّة، وقد كانت الصَّناعة متطورة في سوريا قبل أن تتزاوَّج السُّلطة بالمال، ويضع العسكر الصِّناعة والتِّجارة في أيدي محترفي السَّرقة والإجرام والرِّشى والفساد.
وبعد أن انتهى سامح من تجواله في المستودع دخلوا إلى غرفة الإدارة، فقال للحاج

أريد أن أعمل معك..
كيف لك أن تعمل وقد أتيت لتدرس الطِّب هذا من ناحية؟ ومن ناحية

أخـرى لسـت بحاجـة إلـى عمـل، فأبـوك قـد غطـى جميـع مصاريفـك
لا يـا عمِّـي، أريـد أن أعتمـد على نفسـي، سـأدرس صبـاحاً وأعمـل لـيلاً، وعلى كلِّ الأحـوال ليـس لـي مـكان أذهـب إليـه وأريـد أن أملأ أوقـاتَ فراغـي
استحسـن الحـاج هـذا الأمـر، وقـال لـه: مـن الغـد سـتعمل في نفـس الغرفـة الَّتـي يعمـل فيهـا وليـد، وأرى أنَّـك على حـقٍّ وأنـت شـابُ أمثلـك قليلـون، فبعـد أسـبوع سـتبدأ جامعتـك وعليـك إنهـاء دورة اللُّغة الفرنسـيَّة، ثمَّ ستشـرع دراسـة الطـب كمـا هـو مُقـرر لـك

حسـن يـا أبـي قـال وليـد :مـن الغـد سـنطوف باريـس، وسـأُرِي سـامحاً عظمـة فرنسـا وجمالهـا
وفي صبـاح اليـوم التَّالـي خرجـا، وأوَّل مـازارا بـرج إيفـل هـذه التُّحفـة العمرانيَّـة الفريـدة مـن نوعهـا، وقـد بنيـت بالحديـد وعندمـا بناهـا المهنـدس إيفـل كان يخطـط أن يبقـى البـرج لعشـرين عـاماً، ولكنَّـه إلـى الآن وبعـد مئـة عـام مـا زال قائـماً قـال وليـد

أجابـه سـامح: واللـه مثـل بلدنـا، يُرصـف شـارع ومـدَّة تقديـر بقائـه ثلاثـون عـاماً، ولكـن بعـد ثلاثـة أشـهر تبـدأ الحفـر على جنباتـه وفي وسـطه بالظُّهـور، بعـد ذلـك يشـكلون لجنـة لدراسـة العيـب والخطـأ، فلا اللَّجنـة تنهـي الدِّراسـة, ولا الطَّريـق يصبـح صالـحاً للسـير عليـه، ضحـكا ضحـكات صاخبـة، وتابـع سـامح بصـوت عالٍ،قـائلًا: لعـن اللـه حافـظ الأسـد ونظامـه، فأنـا موجـودٌ في فرنسـا ولـن أخـاف هـؤلاء الوحـوش ثانيـة
اِنقضـى الأسـبوع سـريعاً وقـد تعـرَّف على أكثـر معالـم فرنسـا جمـالاً، وبـدأ كمـا خطـط لـه بالدِّراسـة نهـاراً والعمـل لـيلاً

بعـد أن أخبـر أبـو وليـد الحـاج أبـا سـامح بمـا ينـوي سـامح فعلـه، فـرح فـرحاً شـديداً لأنَّ ابنـه أصبـح رجلًا يعتمـد على نفسـه، وعندمـا أخبـر زوجتـه حزنـت في البدايـة، فقـد خافـت عليـه مـن التَّعـب، فابنهـا لمَّا يعـارك الحيـاة بعـد

وما زالت تراه صغيراً وكأنَّه لن يكبر حتَّى ولو شاب شعر رأسه، ولكن الأب أقنعها أنَّ هذا الأمر جيد له ويمنحه كثيراً من الخبرة والمعرفة
مضت الأشهر الأولى، وانتهى سامح من دراسة اللُّغة الفرنسيَّة، ثمَّ انتقل إلى السَّنة الأولى في كليَّة الطِّب، تعرَّف فيها على طلاب وطالبات عرب وأجانب وفرنسيين، وقد أقام معهم علاقات طيبة، وخاصَّة مع فتاة فرنسيَّة اسمها (إيليت)، نشأت بينهما صداقة قوية، ثمَّ تطورت إلى إعجاب شديد، وبعدها انتهت إلى حبٍّ حقيقي

انتقلا إلى السَّنة الثَّالثة، وقد كانت هذه الفتاة تعمل متطوعةً في لجنة حقوق الإنسان الفرنسيَّة، سألها سامح: ما هدف هذه اللَّجنة..؟
أجابته: الحفاظ على الإنسان وحقوقه، فنحن في أوروبا لن نسمح باستعباد النَّاس ثانية، كما أنَّنا لن نسمح بالظُّلم، وأكل حقوق المواطن، فالإنسان هو غاية الدُّنيا ومنطلقها، ولا شيء يعادل فقدان حياة إنسان أو ظلمه
ونحن في سوريا أيضاً لدينا حقوق كثيرة، نستطيع أن نأكل وننام متى نريد، وحتَّى إنَّ النِّظامَ والحكومة سمحت لنا أن نستنشق الهواء حالما نرغب بذلك ودون أيّة عواقب، وقد سمحا لنا أيضاً أن نُدفن في أيِّة مقبرة نختارها، حقوقاً كثيرة أعطاها لنا السَّيِّد الرَّئيس الخالد المفدى بكلِّ سخاء
ومن هذا الرَّجل حتَّى يكون أمر الشَّعب كله بيده..؟؟

ضحك بحسرة قائلًا: هو المعلِّم الأوَّل، والمهندس الأوَّل، والشَّبيبي الأوَّل، والعامل الأوَّل، وقسم من زبانيته جعلوه الخالق الأوَّل، ربُّ الأرباب والعياذ بالله من غيهم وجهلهم وغبائهم، أتعلمين يا إيليت أنَّهم يسجدون له.؟
ألأنهم يعتبرونه بقرة كإله الهندوس في الهند؟
الأمر أعظم ممَّا تقولين.
فهم يعتبرونه خالداً مخلداً وجد في الأرض بدلاً عن الله، وهو في الحقيقةٍ ديكتاتور سفاح مغتصبُ للسُّلطة أخذها عن طريق اِنقلابٍ عسكري، حكم البلاد بالحديد والنَّار؟

المسألة بسيطة لا تُعيدوا اِنتخابه وانتخبوا رئيساً غيره.؟ أو أن برلمانكم يُقيله وتنتهوا منه إلى الأبد؟
ثمَّ أليس لكم قضاء في بلدكم يحاسب هذا القاتل على أفعاله؟ وكيف يرضى القضاء أن يظلم الشَّعب ويعذِّبه ولا يتدخل.؟

قلت لك يا إيليت: إنَّ هذا الرَّجل (ديكتاتور) يقتل ويسجن كلّ من يقف في وجهه، وقد صنع حول نفسه رجالاً فاسدين، يأتمرون بأمره إن كانوا من الجيش أو أعضاء في البرلمان أو حتَّى من القضاة، وبالإضافة لهذا كلَّه فإنَّ هذا القاتل متفقٌ مع دول العالم وبالأخص حكام أوروبا وأمريكا وإسرائيل، على أن يدوس الشَّعب بحذائه، ويجعله كنعاج يقدمهم للذبح دون حيلة إسرائيل..!!! قالت إيليت مستغربة.؟ أليس بينَّكم وبينهم حروب وأراضٍ محتلة..؟؟

أجل هناك أراض محتلة ولكن هذا المسمى رئيساً باعنا لإسرائيل ولكلِّ دول العالم من أجل أن يجلس على كرسي الحكم ويورِّثه لأحفاده، فهو عدوهم بالعلن وصديقهم وحبيبهم بالخفاء
أتريد أن تعمل معنا بحقوق الإنسان كما أعمل..؟؟
إن كنت أستطيع أن أنفع أولاد بلدي، وأن أفكَّ قيود بعض أسرانا من سجون الظَّالم، فلا مانع لدي، بل أتمنَّى أن أفعل أيَّ شيءٍ يفيد معتقلينا، أو يكشف عن مصيرهم المجهول

طبعاً تستطيع، وسنرى ما يمكننا عمله، وتابعت قائلة: نحن في فرنسا نستطيع أن نتدَّخل بكلِّ دول العالم، ولنا اتِّصالات مع منظمات الأمَّم المتحدَّة لحقوق الإنسان، المنتسبة إليها سوريا، وسنحاول الاتِّصال بمنظمة حقوق الإنسان الَّتي في بلدكم لِنُفعِّلَ الوضع داخلياً وعالمياً، وسنصل إلى نتيجة فأنا أثق ببلدي وببرلمانات أوروبا، وقطعاً لم تصلهم هذه المعلومات الخطيرة عن التَّعدي على حقوق الإنسان في هذه القطعة الغريبة من

الأرض،(لا يعتقد القارئ أنَّ هناك شيئاً في العالم يخفى على الحكومات الغربيَّة، ولكنَّهم لا يهتمون إلَّا بصفقات الأسلحة ولا يريدون أن يسمعوا إلَّا ما يزيد اقتصادهم تطوراً، ولو على حساب دماء العالم الثالث كلّه) امتلأ قلب سامح تفاؤلاً، فربما سيكفِّر عما فعله هو وأبوه بصديقه سليمان ورفاقه، وربما يستطيع أن ينقذ أرواحاً مظلومة طال ظلم السِّجن وظلامه على أهله

أصبح سامح يذهب إلى منظمة حقوق الإنسان يومي العطلة السَّبت والأحد، وقد استلم ملف سوريا في هذه المنظمة، وأصبح يبحث ويكتب عن كلِّ كبيرة وصغيرة، وقد عَرَّفَهُ وليد على أصدقاء له، هاربين من نظام أسد فأصبحوا يزودونه بكثيرٍ من المعلومات عن معتقلي الرَّأي، وأسمائهم وأماكن ميلادهم وتواريخها بالتفصيل،،،حتَّى إنَّه أنشأ ملفاً كتب عليه: خيانة حقوق الإنسان في سوريا. وفي يوم أسود كوجوه رجال حقوق الإنسان في سوريا، قالت له إيليت: بعد أسبوع سيأتي خمسة أشخاص من سوريا، يعملون بمجال حقوق الإنسان، وسوف نجتمع بهم لنقيِّم الوضع، ولنضع النُّقط على الحروف، لنعلم في أيِّ طريق سنسلك مع النِّظام في سوريا

حسنُ قال سامح: وأنا مستعد بكلِّ ما أملك من المعلومات، وإن شاء الله سنضغط على هذا النِّظام كي يحسن من حقوق الإنسان، ويفك أسر بعضٍ من مسجوني الرَّأي

وبعد أسبوع جاء الرِّجال الخمسة، وعندما علموا أنَّ سامحاً سوري الجنسية، اهتمُّوا به اِهتماماً شديداً، وتركوا الوفد الفرنسي، وأصاخوا بأسامعهم إليه، الَّذي نشر ملف المفقودين السِّياسيين والمعتقلين، وخاصَّةً في سجن تدمر سيئ السُّمعة، وقد حاول رجال الوفد أن ينكروا معرفته بهذا العدد الهائل من المعتقلين، حتَّى إنّ أحدهم اِتهم سامحاً أنَّه يقف مع الإمبريالية

العالميَّة، وأنَّه ضد جيش الوطن، وقائده المفدى وقد يكون عميلاً، ولكنَّ رئيسَ الوفد بكلِّ خبث وسوء سريرة، أثنى على سامح وجهوده، ووعده أن يبحثوا هذا الأمر مع القيادة الأمنيَّة للبلد، وأيدَّ مساعيه ودعم أهدافه قائلاً: إنَّ البلد تحتاجه وتحتاج كلَّ إنسانٍ شريف، وأنَّه لن يألو جُهداً بمتابعة حقوق الإنسان، حتَّى لو كلفه هذا الأمر عمره

أُعجب سامح بهذا الرَّجل الوطني رئيس الوفد، وانتهى الاجتماع، بعد أن أخذ رئيس الوفد عنوان سامح ورقم هاتف، ليتواصل معه بكلِّ جديد

إجازة في الوطن

استمر التَّواصل مع محسن رئيس منظمة حقوق الإنسان في سوريا لمدة سنة ونصف، وكان سامح يومها في السَّنة الخامسة من كليَّة الطِّب وقد حصل على الجنسيَّة الفرنسيَّة، وإلى الآن لمَّا يذهب في إجازة إلى سوريا، وكان يكلِّم أمَّه أحياناً، وفي كلِّ سنة يعدها أنَّه سيأتي إليهم في وقت قريب، كان يحاول دائماً ألَّا يكلِّم أباه، إلَّا بالأعياد أو في أوقات بعيدة، وقد أشار عليه محسن أن يأتي إلى سوريا موفداً من منظمة حقوق الإنسان الفرنسيَّة، ليقف على الوضع بشكله الحقيقي، ولرغبة بعض من مسؤولي النِّظام للتعرُّف عليه، والعمل الجاد معه

عرض الأمر على إيليت، ولم ترَ أيّة مشكلة في أن يسافر إلى سوريا، فهو يملك جواز سفر فرنسي، واقترحت عليه أن تسافر معه، فرحَّب بالأمر قائلاً: لتكن زيارة تعارف على والديه وأخته وبلده وزيارة عمل

خابر أمَّه أنَّه بعد ثلاثة أيام وفي يوم الخميس بالتَّحديد سيصل حلب في السَّاعة الرَّابعة، هو وصديقته الفرنسيَّة، رحَّبت أمُّ سامحّ بهذا الاتِّصال، ولم تكن مصدِّقة نفسها، فهذه السَّنة السَّادسة ولما ترَ ابنها وحبيبها سامح، أغلقت الهاتف، واتِّصلت فوراً بزوجها، زافةً إليه خبر قدوم ابنها وصديقته، لم يقفا كثيراً على قدوم الصَّديقة، فالمهم أن يُكحلوا عينيهما برؤية سامح

ودَّع سامح وليداً وأباه، الَّذي نصحه بعدم النُّزول إلى سوريا، وعدم الثِّقة بأيِّ واحد من رجال الأسد، ولكنَّه أصرَّ على السَّفر قائلاً: أنا فرنسي، وحكومة بلدي لن تتركني في حال حصول أيّ طارئ لي

وصلا مطار حلب في الوقت المحدد، وكان الحاج وأمُّ سامح وأخته ينتظرونه بشوق فياض
توقفت الطَّائرة وبعد أن نزلا منها، توجَّها إلى موظَّف الجوازات، الَّذي أدخل اسميهما على جهاز الحاسوب، ثمَّ أمسك بجوازيهما وضحك ضحكة صفراء، كأفعى نفثت سمها في عنق فريستها، ثمَّ رفع سماعة الهاتف، وخلال لحظات إذا بثلة من رجال الأمن يحيطون بسامح وإيليت، وقال قائدهم: تفضلا معنا

إلى أين قال سامح باستغراب!!
سؤال بسيط لمدة خمس دقائق..
ولكنِّي وصديقتي فرنسيان..
طبعاً نعرف هذا ولكن هناك استفسارات لا بد منها.
فأذعنا للأمر الواقع.

إيليت إلى الآن لم تفهم بأيِّ حقٍّ يقودهما،
ولم تفهم هذه الفتاة الفرنسيَّة أنَّها دخلت مزرعة الأسد، وأنَّها أصبحت من عبيده وملك يمينه ما دامت على أرض سوريا، لم تفهم أنَّ القادم مفقود والخارج مولود، وأنَّ البلد لا قضاء فيها ولا عدل ولا حريَّة ولا إنسانيَّة، لم تعرف أنَّها دخلت إلى مقصلة تستطيع بكلِّ سهولة أن تجعل رأسها يطير في مهب الرِّيح
اقتادوهما إلى غرفة جانبية في المطار، وبعد أن تأكدوا من شخصيتهما، قال المسؤول لإيليت: أنت غير مرحَّبٍ بك في بلد الأسد، أما أنت يا سامح فأمامك تحقيق طويل وعسير
ولكنِّي فرنسي.
(خ...عليك وعلى فرنسا)...
وأنا أيضاً مبعوث من منظمة حقوق الإنسان بفرنسا..!! وبلدي ستقلب الدُّنيا عليكم

(أختـك على أخـت فرنسـا على أخـت أوروبـا وأمريـكا) ألَّا تعلـم (يـا عرصـا) أنَّ سـوريا الأسـد لا تخـاف مـن كلِّ هـؤلاء الـكلاب..!! أنـت يـا عرصـا في بلـد الأسـد، وسـتعلم بعـد قليـل مـن هـو سـيِّدك

نعـم يـا سـيادة الضَّابـط: حـقُّ لـك أن تسـبَّ أوروبـا وكلِّ دول العالـم، وحـقُّ لـك أن تهيـن كلّ مـن يـدوس على تـراب سـوريا، فأوروبـا وأمريـكا هـم مـن أوجدوكـم ودعموكـم، وجعلـوا حبالكـم تلـف حـول رقابنـا، وذرفـوا علينـا دمـوع التَّماسـيح عندمـا دُعسـنا بأقدامكـم، فـعلاً كلامـك صحيـح فمـن يطالـب بالحـد الأدنـى مـن حقوقـه وحقـوق النَّـاس، هـو سـاقط عميـل بنظركـم، لأنَّكـم عميـان، لا تـرون ولا تعرفـون شـيئاً عـن الحـقِّ والحقيقـة

وتابـع الضَّابـط: أيهـا العميـل سـنعرِّفك بالقـوة مـن هـو معلِّمـك، وتـاج رأسـك أيهـا الخائـن لوطنـه، وأرضـه، وسـنعلِّمك حقـوق الإنسـان على أصولهـا

لـم تفهـم إيليـت شـيئاً ممَّـا يقـال، ولكنَّهـا شـعرت مـن خلال كلام الضَّابـط المسـؤول، أنَّ الأمـور لا تسـير بشـكل صحيـح، وأنَّ هنـاك مشـكلة ولكنَّهـا سـتحل بوقـت قريـب، فنحـن فرنسـيان ودولتنـا دولـة عظمـى، وحتَّـى المنظمـة الَّتـي نعمـل فيهـا نفوذهـا واصـلُ إلـى أقاصـي المعمـورة

لقـد أوقعـت جماعـة حقـوق الإنسـان، ورئيسـها المخبـر العميـل لنظـام أسـد بسـامح، وجعلـوه يأتـي إلـى سـوريا بقدميـه ليتـمَّ اعتقالـه، ولترجـع إيليـت قسـرياً إلـى فرنسـا بـأوَّل طائـرة عائـدة دون أن تدخـل مدينـة حلـب، واقتيـد سـامح إلـى نفـس الفـرع العسـكري الَّـذي سُـجن فيـه سـابقاً، وحتَّـى تكتمـل الصُّـدف يُرمـى بنفـس الزِّنزانـة، الَّتـي تـرك فيهـا سـليمان وأصحابـه قبـل أعـوام أمَّـا أبـو سـامح، فأخبـره ضابـط الجمـارك الَّـذي كان ينتظـر سـامحاً مـع أبيـه ليأخـذ نصيبـه مـن الهدايـا، أنَّ ابنـه اعتقـل، وتبـدأ معانـاة جديـدة لأهـل سـامح، ومسـألة قـد لا تنتهـي إلَّا بكارثـة

ولكـن هـذه المـرَّة الزِّنزانـة فارغـة إلَّا مـن آثـار دمـاء جفَّـت على حيطانهـا، صحيـح أنَّهـا في الماضـي كانـت رطبـة، ولكنَّهـا دافئـة فأنفـاس أربعيـن شـخصاً،

كانَّ كفيلةً ببث الحرارة في أرجائها، أمَّا الآنَّ فهي باردةٌ كصقيع القطب الشَّمالي.
تقوقع على نفسه، وجلس في زاوية الغرفة، تأخذه أفكاره إلى ماضيه الكئيب في هذه الغرفة، تذكَّر كلُّ اللَّحظات الَّتي عاشها مع الأصدقاء القدامى بكلِّ تفاصيلها، وتذكَّر أمَّ سليمان المرأة المريضة، وأبا سليمان الَّذي مات حزناً وكمداً

هل القدر دائماً ينتقم بهذا الشَّكل! وهل سيصبُّ القدر غضبه على رأسي! أم أن سجني غيمة ستزول بعد بضعة أيام
ولكنِّي فرنسي، ولن تسكت إيليت، كما أنَّ منظمة حقوق الإنسان تعرف مصيري، ولن تتركني، طمأن نفسه، حتَّى إنَّه لم يتذكَّر أنَّ أباه الحاج يستطيع أن يخرجه

حقاً هو لم يشأ أن يفكر في هذا المنحى، وكان كلَّما اقتربت هذه الفكرة من رأسه أرسلها بعيداً، فلست بحاجة للحاج أو لأمواله، وأنا سأخرج من هذا المأزق بنفسي، وسأرجع إلى فرنسا، ولن أدوس هذه الأرض ما دام هذا النِّظام حاكماً
وعلى كل حال أنا فرنسي وعاد ليطمئن نفسه أنَّه فرنسي.

نام وهو منكمش على نفسه لساعات لم يعرف عددها، اِستيقظ على قدم تركله، نظر إلى الأعلى فإذا بالحارس يصرخ به (قوم لعما بعيونك فاتحين فندق إلك ولاك)قوم السَّيِّد المحقِّق يريدك
خرج مسحوباً كالمرِّة الماضيَّة، وكأنَّ الزَّمن يعيد نفسه، فقط الفارق ثماني سنوات، بين السَّحبتين
أخذ للطابق العلوي، فرأى أن الأبواب والغرف وحتَّى لون طلاء الحيطان ما زال كما كان، وأن بعض الكتابات السَّابقة مازالت صامدة كما رآها في سجنه الأوَّل، وكأن نظام الأسد يأبى أن يغيِّر أيّ شيءٍ خشية أن يتغير. دخل إلى

الغرفة عينها الَّتي أُطلق سراحه منها سابقاً، طلب المحقِّق منه الجلوس ثمَّ قال: لن يتمّ التَّحقيق معك بشيء هنا، فقد صدر أمر مباشر بتحويلك إلى سجن تدمر، دون أن نتكلَّم معك بأيِّ شأن
ولكنِّي فرنسي والقضاء الفرنسي هو المخول بمحاسبتي إن أنا خالفت القوانين أو التَّشريعات

ابتسم المحقِّق قائلاً : فور دخولك سجن تدمر قل لهم: إنِّك فرنسي وستسمع الإجابة الصَّريحة والصَّادقة
أجل، سأقول وأنا متأكد أنَّ دولتي لن تدعني في هذه المهزلة.
(بلا كثر كلام وعلاك) إلى الآنَّ أحترمك لعدة أسباب، منها أنَّ أباك الحاج صاحبنا، ولكن إذا شئت أن أغير المعاملة معك خلال ثوانٍ فالأمر بسيط
سكت سامح عندما سمع باسم أبيه، يا الله متى سأنتهي من هذه المعضلة الَّتي تسمى الحاج..؟

أُرجِعَ سامح إلى زنزانته، على أن يُرحَّلَ خلال ساعات.
في مكانه الانعزالي البارد الرَّطب، ذهبت أفكاره إلى باريس وجامعته وحبيبته إيليت ماذا حلَّ بها!وماذا فعلوا بها! أذهبت إلى أهله! أم أنَّها نزلت بفندق بحلب! أم رجعت إلى بلادها! وما ذنب هذه الفتاة أن تتعذَّب! فليس لها بالعير ولا بالنَّفير، وكيف ستكون ردَّة فعل أمِّه! ولمْ يفكر بأبيه فهو حانق عليه أشدَّ الحنق

أمَّا أبوه فبعد أن علم باعتقال ابنه، ركب سيَّارته وأوصل زوجته وابنته إلى البيت، وذهب مباشرة إلى سيادة العميد، الَّذي ترقَّى إلى رتبة لواء، دخل الفرع بكلِّ ثقة، فهو من أصحاب البيت، وفوراً إلى غرفة صاحبه اللِّواء، وعلى باب المكتب طلب من مدير المكتب أن يخبر اللِّواء بوجوده، سُمح له بالدُّخول وبعد أن سلَّم عليه صاحبه رئيس الفرع، فهو لم يعلم بعد بقصِّة ابنه سامح، وأنَّه مسجون بفرع الأمن العسكري، وظنَّ أنَّها زيارته

عابـرة أو أنَّـه يريـد وسـاطةً لأحـد معارفـه، أو ربمـا عنـده شـكاية على شـخص مـا، لكـن قسـمات وجـه أبـي سـامح، لـم تُعجـب اللِّـواء فسـأله: مـا بـك يـا حـاج..؟
اِلحقني يا سيادة اللِّواء، ابني سامح اُعتقل.
كيـف ومتـى..؟ كلُّ علمـي أنَّ ابنـك مسـافر إلـى فرنسـا منـذ سـنوات طويلـة، فمـن سـيعتقله..؟

هنـا هنـا يـا سـيادة العميـد، في مطـار حلـب اعتقـل، وأُخـذ إلـى فـرع الأمـن العسـكري
متى..؟؟؟ منذ ساعة.

حسـناً، لا تخـف ربمـا الأمـر (روتينـي)، ولـن يـدوم الاعتقـال، سـوف أتصـل فـوراً برئيـس فـرع الأمـن العسـكري، فهـو كمـا تعلـم صديقـي ولـك معـزَّة كبيـرة في قلبـه
اِرتـاح الحـاج لهـذا الجـواب المتوقـع فعلاقتـه بهـؤلاء الشَّـخصيات أصبحـت أمتن مـن أن يُرفـض لـه طلـب
رفـع اللِّـواء سـماعة الهاتـف، وطلـب بـكلِّ ثقـة وفخـر مـن عامـل الهاتـف أن يوصلـه برئيـس الفـرع، بعـد لحظـات قليلـة ردَّ الطَّـرف الآخـر بعـد أن سـلَّم عليه
ردَّ عليه السَّلام الطَّرف الآخر دون أن يسمع أبو سامح.

يا معلم لنا عندكم أمانة.
تكرم يا سيادة اللِّواء فكلّنا تحت أمرك.
هل تتذكَّر الحاج أبا سامح..؟؟
وكيف لي أن أنساه..!!
اليـوم الظَّاهـر أنَّ ابنـه اُعتقـل خطـأ، ونريـد مـن سـيادتكم العمـل على الإفـراج عنـه
مع الأسف يا سيادة اللِّواء، الاعتقال تمَّ بمذكَّرة من القصر الجمهوري..
يا لطيف..!!!!!!

أجاب العميد من القصر..!!!
ما هذه التُّهمة الَّتي قد تودي بصاحبها إلى الإعدام، ما دامت من القصر؟
فقصُّته صعبة، ولن أستطيع أن أفعل له أيّ شيء.

بَلـغْ تحياتـي لأبـي سـامح، وبلغـه اعتـذاري، فابنـه يواجـه الخيانـة العظمـى، والتَّعامـل مـع دولـة العـدو الإسـرائيلي
أغلـق الهاتـف واتَّجـه إلـى أبـي سـامح، الَّـذي بـدأ وجهـه بالشُّـحوب والاصفـرار وبـدا وكأنـه يـذوب كقطعـة جليـد تـمَّ وضعهـا على نـار مشـتعلة حاميـة
اِستجمع قواه واِبتلع ريقه ثمَّ قال: طمئنني ياسيادة اللِّواء ما القصَّة.؟؟

والله يـا حـاج لا أحـد يسـتطيع أن يفعـل شـيئاً، إذا كنـت تعـرف أحـداً بالقصـر الجمهـوري، فعليـك الالتجـاء إليـه، فاعتقالـه صـدر مـن أعلى المسـتويات، وقـد يكـون السَّـيِّد الرَّئيـس حافـظ على درايـة بـه، وقـد يكـون هـو مـن أمـر باعتقاله
الله أكبـر، هـل وصـل أمـر ابنـي إلـى السَّـيِّد الرَّئيـس!! ومـاذا فعـل حتَّـى تكـون هـذه العاقبـة لـه..؟؟
يـا حـاج الخيانـة العظمـى والعمالـة، الظَّاهـر أن سـامحاً في فرنسـا كان يُنسِّـق مـع العـدو الصُّهيونـي، وقـد أتـى إلـى البلـد لينفـذ مخطـطاً يسـتهدف أمـن البلـد وأمانـه.

لـم يـدر الحـاج مـا يقولـه، ولـم يـدر أيـن هـو، فقـد دارت بـه الدُّنيـا، وطـاش حجـره كمـا يقـال، فأصبـح يكلِّـم نفسـه، وكأنَّـه فقـد عقلـه، خـرج مـن عنـد اللِّـواء دون أن يسـلَّم عليـه، نسـي أن يركـب سـيَّارته المركونـة عنـد بـاب الفـرع، وأخـذ يمشـي هائـماً على وجهـه في شـوارع حلـب، إلـى أن تعـب فوجـد مقهى صغيـراً جلـس فيـه، جـاءه النـادل سـأله مـاذا تريـد أن تشـرب يـا حـاج.؟؟
أين أنا قال مستغرباً ؟

في حيِّ اللَّيرمون..

أووووف، هل مشيت كلّ هذه المسافة دون أن أشعر..؟؟ أعطني كأساً كبيرةً من الشَّاي، واجعله حلواً

أراد أن يعيد قليلاً من نشاطه وحيويته، جلس في المقهى يراقب المارة دون أيِّ هدف، ولكن أول من خطر في باله كان أبو سليمان، عندما جاءه سائلاً عن ابنه، وكيف طرده من دكانه وعامله بقسوة، ثمَّ تذكَّر سمسرته، وتعامله مع أجهزة الأمن، هزَّ رأسه قائلاً: قد يكون ما صادفته اليوم عقاباً على ظلمي لإحدى ضحاياي
شرب كأسه ودفع حسابه أخذ سيَّارة أجرة راجعاً إلى الفرع، الَّذي ترك سيَّارته أمامه، ركبها واتَّجه إلى بيته، الَّذي رآه من بعيد كئيباً، وكأنَّ الحياة نزعت منه، وكأنَّ الموت تسلَّل إليه، وأصبح ساكناً فيه

كانَّ الحاج عندما يريد أن يرتاح يجلس في بيته الفخم، ليشعر بالسَّعادة والمتعة، أمَّا الآن فأشباح الموت تحيط به وتحاول مشاركة أبا سامح ما بقي له من أيام في هذه الدُّنيا، الَّتي لم يشعر أنَّها فانية، لا تساوي جناح بعوضة إلَّا اليوم
وصل إلى بيته منهك القوى، رمى بنفسه على الأريكة القريبة من الباب، وأمُّ سامح تسأل وتلحُّ بالسُّؤال، محاولةً إخراج الكلام من جوف زوجها دون نتيجة

وأخيراً قال لأمِّ سامح وابنته: سامح، الله يعلم ماذا سيجري له، تهمته كبيرة ولن يستطيع الحاج الواصل، الَّذي يحلُّ مشاكل كثيرة للناس، أن يحلَّ مشكلة ابنه وانفجر بالبكاء
لم تعهد أمُّ سامح وابنتها، أن تريا الحاج القوي، الواثق بنفسه يبكي.
فما كان منهما، إلَّا أنَّهما دخلا في حالة من العويل والبكاء، حتَّى أصبح في البيت مناحة، وكأنَّ كل من فيه قد توفي وأتى الأقربون ليبكوهم
دقائق طويلة من البكاء، خفت عندما قام الحاج قائلاً: لا حول ولا قوة إلَّا

باللـه، علـيَّ أن أدخـل لغرفتـي، فأنـا أريـد أن ارتـاح
ما إن دخل غرفته حتَّى لحقت به زوجته قائلةً:
تعنـي يـا حـاج أننـا لـن نـرى سـامحاً ثانيـة.؟ يعنـي يـا حـاج ابنـي الوحيـد سـأبكيه العمـر كلّـه؟ أنـت الحـاج أبـو سـامح لا يمكـن لـك أن تستسـلم بهـذه السُّـهولة، أنـت رجلـي وسـندي، وسـندنا كلِّنـا ولا يمكـن أن تتـرك ابننـا بهـذه الهاويـة
هـزَّ رأسـه المتعـب بحـركات بطيئـة وكأنَّ المحـرك وصـل إلـى آخـر حياتـه، مسـتنفذاً آخـر قـواه، قبـل أن يُعلـن خروجـه على الخدمـة.
سأحاول، لن أترك ابننا، وإن شاء الله سأنجح.
قـال هـذه الكلمـات مـع علمـه أنَّـه لـن يسـتطيع أن يفعـل أيَّ شـيء، فالأمـر ليـس بلعبـة، وهـو أكثـر مـن خطـر، فقـد صـدر مـن الدِّيكتاتـور، الَّـذي ليـس مـن السُّـهولة الوصـول إليـه

الوصول إلى سجن تدمر

أخرج الحراس سامحاً من زنزانته، بعد أن قيدوا يديه إلى سيَّارة مغلقة، كانت تنتظره في ساحة الفرع، وانطلقت قاطعة شوارع حلب، إلى أن وصلت إلى الطَّريق العام، الَّذي يصل حلب بحمص، فدخلته وسارت بسرعة أكبر، جلس سامح في صندوق السَّيارة الخلفية، ولم يكن هناك إلَّا نافذة صغيرة، ولم يجد ما يجلس عليه، بعد أن اكتفى من النَّظر إلى شوارع حلب، الَّتي ظنَّها مدينته وموطنه، وأنَّها ستحميه إذا احتاج إليها، وهي من ستطعمه إن جاع، ولكن ظنُّه خاب وأمله خبا

ما بالك ياحجارة حلب! ما بالك يا شعب حلب.! ألست بابنكم! أليس لحمي من لحمكم! ودمي من دمائكم! أولست سامحاً صديقكم وأخاكم البار! ولكن لا حياة لمن تنادي، فلا أحد شعر بسامح، ولا اهتمَّ به إلَّا عائلته، فلم يسمع بقصَّته إلَّا القليل من الأقارب

وعندما فقدنا التآلف ونصرة المظلوم، وترك كلُّ إنسان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، سلَّط الله علينا حافظاً الوحش، ليفعل بنا العجائب والمصائب، وتركنا نصرخ في قاع عميق وحيدين، من غير منقذ أو معين جلس سامح على أرضية السَّيارة الحديديَّة، بعد أن تعب من الوقوف، وهي تقطع الطَّريق بسرعة مخيفة، فقد كان السَّائق مجنداً وتعلم القيادة في فرع الأمن، فكان يقودها كأنَّه يسوق ثوراً هائجاً يرفض الانصياع لأوامره، وصلوا إلى حمص بسرعة قياسية، وتمنَّى ألَّا يصل وألَّا ينتهي الطَّريق، على الرَّغم من رعونة السَّائق وقسوة الجلوس على السَّطح الحديدي

فقد توقع أنَّ ما ينتظره في سجن الموت ليس بالقليل.

خرجت السِّيارة عن الطَّريق العام، إلى طريق حمص تدمر الفرعي، وبعد نصف ساعة ومن بعيد، أطل مبنى قديم وسط الصَّحراء يسمى سجن تدمر، الَّذي بُني سنة 1966 خصيصاً لعقوبة العساكر من الضُّباط والأفراد، إلى أن اِستعمله الدِّيكتاتور لحبس معتقلي الرَّأي ومخالفيه، وكلّ من في قلبه ذرَّة كره له، بدا السِّجن من بعيد كقلعة صماء لا ساكن فيها ولا حياة، ما عدا الحرس الواقف أمام الباب، الَّذي فتحه وسمح للسيارةِ بالولوج إلى داخله، فُتح الباب الخلفي للسيارة وأمره أحد الحراس بالتَّقدم، وما إن وطأت قدمه أرض السِّجن، حتَّى أتته ضربة خاطفة من خلفه، دارت به الدُّنيا للحظات كادت أن تفقده الوعي، ثمُّ استعاد توازنه، وثبَّت نفسه واقفاً، سمع سامح صاحب الضَّربة يقول: هذه تحيَّة صغيرة لحضرتكم، وضحك البقيَّة

دخل إلى غرفة متوسطة الحجم، وقام الحارس بتفتيشه، وإخراج جواز سفره ومبلغ ألفين من الدولارات كانت في جيبه، ففي فرع الأمن العسكري لم يتخذوا أيّ إجراءٍ معه، لمعرفتهم بأهمِّيَّة الشَّخص
أعطى الحارس الضَّابط المناوب ما وجده مع سامح من النُّقود، فقام بوضعها في جيبه، قائلاً:

سجل معه جواز سفر ذي جنسية فرنسيَّة فقط وأعمل له اللازم.
وما هو اللازم قال سامح: بعد أن عرفوا أنَّني فرنسي يجب أن يعاملوني باحترام

لحظات قصيرة ودفعه العسكري إلى دولاب أَخرجَ قدميه من داخله وربطهما فيه، وتناوب جلادان على ضرب أسفل قدميه، بعد أن أجبراه على خلع حذائه، وكلَّما قال لهم: إنَّي فرنسي اِزادد الضَّرب إلى أن فقد الوعي، حملاه عابرين به السَّاحة، إلى ممرٍ طويل على جانبيه غرف المهاجع، الَّتي يتواجد بها السُّجناء، ورموه بكلِّ قسوة، حتَّى إن وجهه اِرتطم بالأرض، فسبب له كدمة، لم تَكد تُعرف ملامحه من قتامة اللَّون الأزرق الَّذي طغى

عليها، رموه في المهجع التَّاسع، الَّذي لن ينسى هذا الرَّقم ما دام حيّاً، تجمع حوله سجناء المهجع محاولين رشَّ بعض الماء على وجهه ليصحو من غيبوبته

جلس شاب في طرف الغرفة، الَّتي لا تزيد عن أربعة من الأمتار، ينظر ملياً إلى هذا الشَّاب القادم هل من المعقول أن يكونَّ سامحاً، أم أنَّه شبيهه! منذ ثماني سنوات لمْ أرَ سامحاً، ولمْ أسمع عنه أيَّ شيء، كلُّنا جئنا إلى تدمر إلَّا سامحاً، وقد اتهمه من معي أنَّه مخبر، بعد أن عرفوا أنَّه قد شهد عليهم وأخبّر عن المجموعة، هكذا قال لنا المحقِّق، على الرَّغم من دفاعي المستميت عنه ولكن دون فائدة، فهل هذا سامح، أم أنَّه شخص قد شُبه عليَّ! وما زال يكلِّم نفسه، حتَّى اِستفاق الشَّاب من إغمائه ونظر إلى الوجوه الضَّعيفة الباهتة الَّتي تتطلَّع إليه، ولدقائق لم يستوعب أين هو، ومن هذه الوجوه الشَّاحبة الَّتي تنظر إليه بتمعُّن وتفحُّص! وكأنَّ الموت قد رُسم عليها، اقترب الشَّاب من سامح قائلاً: أهلاً بك بين أهلك. يا الله هذا الصَّوت ليس غريباً عليَّ، استجمع سامح كلّ قواه العقلية ليعرف من يخاطبه، ولكن هول الكارثة جعل نسبة الذَّكاء أو التَّذكُّر منخفضة لديه، فلم يستطع التَّمييز، ولم يردَّ على صاحب الصَّوت، فهو ما زال مستلقياً على الأرض حاول استجماع قواه ليستطيع الجلوس، تابع الصَّوت: الأخ من أيَّة مدينة.؟

أقسم بالله إنَّه صديقي سليمان.
نظر مطوَّلاً محاولاً التَّأقلم مع الوجه الجديد، الَّذي تغيِّرت كلُّ ملامحه، حتَّى لو شاهدته أمّه لمَّا عرفته، وبعد أن جلس وأسند ظهره إلى لحائط نظر إلى صاحب الصَّوت، قائلاً: هل أنت سليمان..؟
إذاً أنت سامح قال سليمان.
عانقه بكلتا يديه وضمه إليه، حتَّى إنَّه لم يعد يشعر بآلامه المبرحة، ونسي أنَّه ملقى بزنزانة رطبة قذرة، وجع السُّنين كتب على جدرانها،

فجعلها كنهر جف ماؤه وتشقَّقت أرضه وهجرته طيوره، حتَّى أصبحت صعيداً زلقاً لا يرتجى منها شيء
أيّة أقدار ساقتك إلينا، يا صديقي الطَّيب سامح.

أنا طيب..!! ولكنك لا تعرف غريمك، ولا تعرف ماذا فعلت بك..!! قال سامح في نفسه
الحمد لله الَّذي جمعني بك وأنت حيٌّ، لم أعتقد أنِّي سألتقيك ولو في منامي، ما الَّذي جاء بك إلى هنا بعد هذه الأعوام.؟؟

وبدأ سامح يخبر رفيقه، والحاضرون كلُّهم آذان صاغية، أخبره عن كلِّ ما لاقاه بالتَّفصيل وكيف خرج من سجنه ثمَّ سافر إلى فرنسا، وكيف أنَّه انتسب لمنظمة لحقوق الإنسان محاولاً أنْ يخفِّف عن المعتقلين ومساعدتهم، وكيف استدرجه عملاء أسد إلى سوريا،أخبرهم عن حبيبته إيليت وأنَّه لا يعرف مصيرها، حكى لهم عن أكثر تفاصيل حياته ولكنَّه لم يخبرهم كيف شهد على سليمان ورفاقه، كان يودُّ كثيراً أن يطلب منه أن يسامحه، ويغفر له، كان يودُّ أن يقبِّل يديه وقدميه، ولكنَّ الكلمات أبت أن تسعفه فبقيت حبيسة قلبه، وسكت رغماً عنه، وترك الجرح عميقاً في داخله، عوضاً من أن تنظر إليه هذه الوجوه على أنَّه خائن

وماذا حصل لأصحابك يا سليمان؟ أُعدموا جميعاً، وحتَّى أنا صدر عليَّ حكم إعدام، ولكن بسبب صغر سني عُدِّل الحكم إلى السِّجن المؤبد، وجميعهم قد أعدموا في يوم واحد ووقت واحد
يا الله، هكذا وبكلِّ بساطة..؟؟
يا صديقي بكلِّ بساطة، هؤلاء وحوش وليسوا من بني البشر وما نحن بين أيدهم إلَّا كحشرات استحقت الدَّهس، وستجد في الأيام القادمة ما يفسر كلامي
انفضَّ الحضور مبتعدين قليلاً عن سامح ورفيقه، وأقول قليلاً، لأنَّ نزلاء

الغرفة عندما كانوا يريدون النَّوم، يستلقون على جنوبهم كالسَّمك في علب السَّردين، رأس أحدهم يوضع إلى قدمي الآخر مسايفةً
تكلَّما عن ماضيهما وعن مدرستهما وناديهما، وأيام الطُّفولة والشَّباب، سأله عن أمِّه وأبيه، وهل زارهما.؟؟ أو رآهما بعد أن سجن سليمان..؟
طبعاً زرتهما، وقد اِستمريت بالتَّواصل معهما عن طريق الهاتف حتَّى آخر أيامي

ولكن لم يخبره بموت أبيه محزوناً عليه، فالأمر لن يقدِّم أو يؤخِّر، إلَّا أنَّه سيزيد آلامه آلاماً، ثمَّ نبه سليمان سامحاً بعدم التَّحرك وهو نائم، وأشار إلى السَّقف، فإذا به فتحتان، وتابع قائلًا: هناك حارسان يقفان على السَّطح =، وإذا ما تحرَّك أي مسجونٍ أو سعل أو عطس فسوف يُعَلَّمُ ويعاقب صباحاً، في حال لم يكن هناك عذاب بالأصل، فموضوع الضَّرب والإهانة مستمر بشكلٍ يومي، وعليه أن ينتبه بألَّا يردَّ أيّ مطلب، أو كلمة للحراس، وألَّا ينظر في وجوههم، وأن يُبقي وجهه مطأطئاً، وإلَّا نال أقسى العقوبات
ولكنِّي فرنسي يا سليمان..!!

هؤلاء الوحوش لا يفهمون غير أنَّك سجين، ومباح لهم أن يفعلوا بك ما يشاؤون
ألهذه الدَّرجة!!!
وأكثر، هنا لا يوجد دولة ولا يوجد قضاء ولا يوجد إنسانيَّة، فقط تعذيب وقهر وإذلال، وبعد نصف ساعة، سيحل الظَّلام ونام، وكما أخبرتك، لن نستطيع أن نتكلَّم، وإذا شاهدنا الجنود الواقفين على السَّطح سَيُعَلِّمُونَنَا، وستكون العقوبة اليوميَّة زائدة
وكما أخبره سليمان، استلقى على طرفه الأيمن، وكانت قدما أحد السُّجناء بوجهه، وظهره مستند إلى ظهر صديقه سليمان
أخذت أفكاره تسافر به إلى فرنسا وإلى برج إيفل، لا يعلم لمَ تذكَّر هذا الصَّرح الحضاري، هل لأنَّه عندما كلَّمه صديقه وليد شارحاً عنه، ربطه

بتخلفنا وفساد المسؤولين.؟؟ ثمَّ تركه وطاف بخياله إلى إيليت، وتذكَّر أمّه أيضاً، حاول أن ينام ولكنَّ النوم جفاه، فهو غير مرتاح فجنبه أصابه الخدر بسبب برودة الأرض، وعدم الحركة، وأخيراً وبعد تعب شديد نام، ولم يستيقظ إلَّا على مياه تصب فوقهم من السَّقف، تحرَّك قليل إلَّا سليمان أمسكه

فسأله بصوت خافت: ما هذا..؟؟
لا تهتم، هذا بول الحارس, ويجب أن تتعلَّم عليه.
بول! اِخفض صوتك، وإلَّا سنصبح هدفاً كبيراً لهم غداً.
ولكنه بول ؟

لم ترَ بعد الأشياء الأخرى، عُدْ إلى أحلامك، فهذا أمر لا يحتاج إلى البحث فيه
معقول أن يبول علينا هذا الحارس الحقير، ويقول لي سليمان: إنَّه أمر بسيط..؟؟

حاول النَّوم ولكنَّه لم يستطع، مرَّت ساعات ثقال، وعيناه هجرتا النَّوم، وجسمه كأنَّه قطعة خشب ضربتها الشَّمس أعواماً فأصبحت جافة، لو اقتربت النَّار منها لأشعلتها وجعلتها رماداً في لحظات.

بزغ ضوء النَّهار، واستيقظ أهل المهاجع.
ماذا سيُفعَلُ بنا يا سليمان. ؟؟
سنخرج إلى السَّاحة، لنتلقى بعضاً من ضربات عصيهم، إن كان عذاب اليوم قليل، وإن كان مقرراً له أن يكونَّ ثقيلاً علينا، فسيضعوننا في الدولاب لنأكل نصيبنا، كما أكلته أنت البارحة
أَكلُّ يوم على هذا الحال؟
نعم أغلب الأيام عذاب صباح مساء..

يـا اللـه!! أأسـتطيع أن أعيـش بمثـل هـذه الحيـاة!! أو أسـتطيع أن أتأقلـم مـع هـذا الوضـع.!

عَـدَّ رئيـس المهجـع رفاقـه وأخبـر الحـارس بالعـدد، فهـذه العـادة عنـد كلِّ خـروج للسـاحة، مـرَّ السُّـجناء عبـر الممـر الطَّويـل والكـبلات الرُّباعيَّـة والعصـي تلاحقهـم، وتضـرب رؤوسـهم وظهورهـم وكلَّ جـزء في أجسـامهم، فهـذا لا يهـم، وإذا قتـل أحدهـم

قـال سـليمان لسـامح: انتبـه لكـيلا يضربـوك على رأسـك، منـذ يوميـن ضـرب أحـد الحـراس أحـد الأطبـاء المعتقليـن على رأسـه، فسـقطت عينـه أمامـه، فدائـماً ضـع يـدك على رأسـك

خرجـوا إلـى السَّـاحة، بعـد أن أكلـوا نصيبهـم مـن الضَّـرب والـرَّكل، ووقفـوا فيهـا سـاعتين دون أيّ عـذاب فاليـوم الظَّاهـر لا عـذاب فيـه، وكمـا خرجـوا مـن مهاجعهـم رجعـوا إليهـا عبـر الممـر، والحـراس يقومـون بضربهـم بـكلِّ مـا أوتـوا مـن قـوة، ومـا إن دخلـوا المهاجـع حتَّـى أدخـل الحـارس الفطـور لهـم، قـائلاً : تأكلـون سـمَّاً أيُّهـا الخونـة

كان الفطـور بيضـة واحـدة لـكلِّ أربعـة أشـخاص، مـع ثلاث حبـات مـن الزيتـون ورغيـف خبـز لـكلِّ مسـجون

هل هذا فطورنا قال سامح..؟؟

أجـل هـذا هـو، وأحيـاناً قـد يحرموننـا مـن الفطـور وحتَّـى مـن وجبـة الغـداء، ولنـا وجبتـان في اليـوم صبـاحاً وعصـراً، ومـا يقـدَّم لنـا تأبـى الحيوانـات أن تأكلـه، ولكـن إذا لـم نـأكل لـن نعيـش

أخـذ سـامح حصتـه وحـاول مضـغ الخبـز ولكنَّـه لـم يستسـغه، أعطـاه لسـليمان قائلاً:

فعلاً الحيوانات تأبى هذا الطَّعام.

أعاده سليمان راداً عليه:

لا بـد أن تأكلـه فليـس هنـاك مفـرٌّ منـه، حـاول وإلَّا سـتموت جـوعاً، علينـا أن نُبقـي أنفسـنا أحيـاء، فمهمـا طـال الزَّمـان سـننتقم

توقـف عـن المضـغ الَّـذي حاولـه ثانيـة، وأبـت اللَّقمـة أن تتحـرك في فم سـامح، مـا هـذه القـوة في نفـس سـليمان! ومـا هـذا الإصـرار الغريـب! ألـم تنكسـر إرادتـه بعـد هـذا السِّـجن الطَّويـل، وهـذه العذابـات المتكـرِّرة! ألـم يتعلَّـم أنَّ العيـن لا تقـاوم المخـرز..؟ ألـم يعـرف أنَّنـا ضعفـاء مسـجونون مقهـورون! وأن كلَّ مـن في الخـارج لا يتذكرنـا ولا يبالـي بنـا، كـمْ أودُّ أن أكـون قـوياً وصبـوراً كسـليمان وصبـره، ثـمَّ تابـع طعامـه على أمـل أن يـرد الكيـل لهـؤلاء الظَّلمـة أضعـافاً

أحكام لا تُصدَّق

بعد أن انتهوا من طعامهم، قال له سليمان: سَأُعرِّفكَ على من في المهجع، وشرح عن الموجودين وعملهم السَّابق، وقد استغرب سامح أشدَّ الاِستغراب عندما وجدَّ أكثر الحضور إما طبيباً أو معلماً أوأستاذ جامعة أومدرس دين

هل هؤلاء المثقفُّون الدَّارسون ومعلمو الأجيال هم أعداء الوطن.!! ومن هو صديقُ للوطن إذا كانت الحثالة الحاكمة تجلس في برج راحتها تضع القوانين وتتحكم برقاب النَّاس وأرزاقهم وكان عِلية القوم في السُّجون.؟
نادى سليمان على شابٍ باِسم تبسَّم.
تبسَّم، ردَّد سامح الاسم مستغرباً! اِسم لم أسمع به في حياتي كلِّها.
تقدَّم الشَّاب مبتسماً وهو يقول: نعم أنا تبسَّم، هو لقبُ اِلتصق بي بعد أن جئت إلى هذه المقبرة، وتهمتي أنَّي تبسَّمت

وهل هناك تهمة في العالم يحاسب عليها القانون، إن تبسَّم أيّ إنسان..؟؟
أجل يا صديقي في قانون غابتنا قد يفتحون قلب الإنسان ويبحثون فيه، وقد يحكمونه بالإعدام إن وجدوا فيه أمراً لايحبونه، أنا يا صديقي الجديد كنت مثلك في فرنسا، وكنت جالساً بين عدد من رفاقنا في أحد التَّجمعات فقام أحد الأشخاص وشتم السَّيِّد الرَّئيس، وأريد أن أُصدقك القول إنَّي شعرت بنشوة وسعادة لم أشعر مثلها في حياتي، ومع الأسف ظهرت ابتسامة خفيفة على شفتي، وعندما رجعت إلى مطار دمشق قادماً من فرنسا لأزور عائلتي، فإذا برجال الأمن يلقون القبض عليَّ، ثمَّ يقتادونني إلى فرع مخابرات فلسطين، حيث بقيت فيه لمدة أسبوعين، ولا أريد أن أتكلَّم عن وحشية التَّعذيب الَّذي لاقيته هناك، ثمَّ أحضروني إلى تدمر دون أن أعلَّم أيّ شيء عن تهمتي، وعندما قُدمُتُ للمحاكمة قال لي القاضي

سليمان الخطيب، وطبعاً هو من الطَّائفة النُّصيريَّة، فكلُّ القضاة والضُّباط ومديري السِّجن المتعاقبين عليه، هم من الطَّائفة الحاكمة المجرمة نفسها،

أكنت حاضراً عندما شُتم السِّيِّد الرَّئيس، رمز الأمة العربيَّة وحاميها حافظ الأسد في جلسة كذا وكذا، تذكَّرت الأمر وخمَّنت أنَّ أحد الجالسين معنا كان مخبراً للنظام الَّذي نشر كثيراً من رجاله في أوروبا، وصرف عليهم ملايين من الدولارات حتَّى يأتوه بأخبار ساكني أوروبا من السُّوريين المهاجرين، ليقطع ألسنتهم ويجثم على صدورهم، إذا كانوا بداخل الوطن أو خارجه
أجبته: كنت حاضراً يا سيادة القاضي ولكنِّي -والله العظيم- لمْ أتكلَّم بأيِّ حرف، ولمْ أردَّ بأيِّ كلمة

قال لي: لا تحلف، أعلم ذلك، ولكن يا حيوان لِمَ لمْ تدافع عن سيادة الرَّئيس الخالد.؟ ولِمَ تبسَّمت ابتسامة تدل على مكنونك الدَّاخلي الحاقد والمناهض لسيادته.؟

لم أعرف بمَ أجيبه، هل أقول له: إنِّي وددت لو سببت إلهكم مئات المرَّات كلّ يوم!؟ أو أقول له: لولا أنَّكم تسدون أفواه الشَّعب لبصق عليكم وعلى رئيسكم في كلِّ صباح ومساء، ولكنِّي خفت من الإعدام، فارتبط لساني، وكأنَّه أصبح حجراً ألصق بفمي لا يستطيع الحراك.

قال القاضي الظَّالم :وأنا سأحكمك بخمس سنوات لأنَّك لم تدافع عن قائدنا الرَّمز وخمس عشرة سنة لأنَّك تبسَّمت، انقلع حقاً إنَّك حيوان، واحمد ربك أنِّي بمزاج حسن اليوم ولمْ أعدمك، ثمَّ سحبني السَّجان وبعد أن عمل الواجب معي(والواجب هو ضرب وتعنِّيف وجلد ومذلة ومهانة) رماني في زنزانتي، ومنذ ذلك اليوم، وهم يلقبونني تبسَّم
لم يصدق سامح ما سمعه!! توقَّع أيَّة تهمة يسجن عليها الإنسان، ولكن

هل من المعقول أن يسجنه هذا المجرم هذه السَّنوات الطويلة لأجل موقف تافه!! لو حصل بأيِّ بلد في العالم لغيروا الرَّئيس والبرلمان، ولنصبوا المشانق لهم ولتغيَّر قانون البلد والأحزاب
تكلَّم شابٌ آخر سائلاً:
هل تعلم ما تهمتي.؟

هزَّ رأسه نافياً قال الرَّجل:
عندما كنت مسافراً من قريتي إلى اللاذقية، جلس شاب كنت أعرفه بجانبي، وأخبرني عن تنظيم الإخوان المسلمين، وطلب مني أن أنضم إليهم، ولكنِّي قلت له: لا تمزح معي ودعني وشأني، فأنا لا أهتم بالسِّياسة وليس لي أيّة رغبة بالأحزاب، والظَّاهر أنَّ الجالس خلفنا كان مخبراً، سمعنا فبلَّغ الأمن عنا، وعندما عُرِضْتُ على القاضي قال لي كما قال لتبسم: يا حيوان لماذا لم تُخبر عن هذا الشَّاب الَّذي أراد منك أن تنضم لهذا الحزب الإرهابي..؟ حاولت أن أدافع عن نفسي ولكنَّه صرخ في وجهي قائلاً: انقلع عشر سنوات تستحقها لأنَّك حيوان

وقال آخر: وأنا حُكِمْتُ عشرين عاماً دون أن أعرف ما تهمتي، قال لي قاضي الإعدامات نفسه: هل اسمك محمد.؟ قلت: نعم
قال: انقلع، عشرين سنة، وإذا تكلَّمت كلمة واحدة، سأزيد المدة عشر سنوات أخرى
خرجت وأنا غير مصدق، أنَّنا في دولة القانون يحكم فيها أو أن العدل مرَّ من جوارها، أو حتَّى إنَّها تسمى دولة، إنَّها يا أصدقائي دولة عصابات ومافيا ولا يمكن لنا أن نصفها إلَّا بهذا الوصف

قال رجل تجاوز السِّتين من العمر: لن أتكلَّم عن قصَّتي، فأنا محكوم سبع سنين، وهذا الحكم لا يساوي شيئاً أمام الآخرين، ولكن منذ أسبوعين قُدِّمَ رجل طاعن بالسِّن للمحكمة هو وولداه، وطبعاً المحكمة والمدعي العام

ومحامي الدفاع والشُّهود كلّهم مجموعون بشخصيَّة القاضي، فهو الوحيد في المحكمة وحكمه نافذ لا استئناف له ولا نقض، طلب منه القاضي سليمان الخطيب أن يختار أحد ولديه فهو سيعدم أحدهما ويترك الآخر، نظر الرَّجل العجوز إلى وجه ولديه باكياً وقال: لا أستطيع، أجابه المجرم القاضي: إذاً سأعدم الاثنين، رجع الرَّجل بنظره إلى ابنيه كليهما والدَّمع يُغرق لحيته، ثمَّ اتِّجه إلى ابنه الكبير قائلاً

أنت متزوِّج ولك ذرِّيَّة، أما أخوك الصَّغير فهو عزب سامحني يا بني وعسى أن يجمعنا ربنا تحت لواء الرَّسول العظيم، وارتمى على ابنه الكبير يقبِّله قبلات تكاد لا تنتهي، قال القاضي: إذاً فقد اخترت كبيرهما

قال الأب نعم...ردَّ الابن ونِعمَ الرَّأي رأيك، اِختر يا أبي من شئت، فستراني صابراً راضياً محتسباً الأجر عند الله

أخرجه القاضي إلى ساحة الإعدام، وليزيد في غيه وحقده جعل الأب والابن يشهدان إعدام الشَّاب عنوة، ثمَّ قاموا بإعدام الابن الثَّاني وألحقوا الأب بهما

لم يستطع سامح سماع المزيد، فاعتذر من الحاضرين ووضع يده على وجهه وبكى، هو بكى بحرقة على ما سمعه وبكى على نفسه وعلى سليمان ورفاقه، وبكى على أبناء بلده المسجونين في سجن تدمر، وعلى جميع المسجونين خارج هذا السِّجن الفظيع، الَّذين هم في مدنهم وقراهم وبيوتهم، فسوريا أصبحت سجناً كبيراً، لا يمكن أن يخرج المواطن إلَّا بتأشيرة خروج إلى بلاد العالم، وهذا لا يناله إلَّا ذو حظ عظيم، أو بتأشيرة خروج إلى القبر، وهذا حال أكثر أهل بلدي، وإنَّي أرى الرَّحيل إلى القبر أهون من الجلوس في بلد حكامها من الأوباش المرتزقة القتلة قال في نفسه وفي المساء أُجرِيَ تفقُّد للمساجين كما هي العادة، استمر الوضع ثلاثة

أيـام على نفـس المنـوال، في اليـوم الرَّابـع أخرجـوا كلَّ المسـجونين إلـى السَّـاحة، وبـدؤوا بمـا يسـمى حفلـة ومـن يسـمع بكلمـة حفلـة يظنُّهـا حفلـة شـواء ورقـص، فيهـا مـا لـذ ومـا طـاب مـن الطَّعـام، أو حفلـة موسـيقى عالميَّـة تأخذهـم إلـى خيـال حالـم

والحقيقـة هـذا مـا كان يشـعر بـه جلادو أسـد، فكـمْ مُلئـت قلوبهـم بالحقـد والقيـح،! حتَّـى سـمُّوا هـذا العـذاب والإجـرام حفلـة.
عشـرات الدَّواليـب مـع عشـرات الجلاديـن يتنافسـون في السَّـاحة أيهـم أشـدُّ قـوة ومـن سـيضرب أكثـر ومـن سيسـلخ جلـود هـؤلاء المسـاجين المسـاكين أكثر
انتهـت الحفلـة بحـالات إغمـاءٍ وإصابـات وجـروح عديـدة، ورجعـوا جميعهـم إلـى مهاجعهـم ينتظـرون يـوماً آخـر، وعذابـات مسـتمرة
اسـتمر الحـال على سـامح في هـذه الزِّنزانـة مـدة سـنة دون أن يسـمع أيّ خبـر مـن الخـارج، أو يـرى بصيـص أمـل

فبعـد شـهرين أُخِـذَ للمحاكمـة، سـأله القاضـي عـن اسـمه.؟ فأجابـه: إنَّ اسـمي سـامح، وأنـا أحمـل الجنسـيَّة الفرنسـيَّة
احمـر وجـه القاضـي سـليمان الخطيـب، قـائلاً: بتهكـم وغضـب واحتقـار (ليـك ولا) أنـت وفرنسـا وكلُّ دول العالـم على قدمـي، هـل تعـرف أنَّ اللـه لا يدخـل إلـى هـذا المـكان..؟؟ (والعيـاذ باللـه مـن كفـر هـؤلاء القـوم)
وهـذا أيـضاً كلام مديـر سـجن تدمـر يومئـذ فيصـل غانـم، وهـذا الفيصـل نُصيـري دون أدنـى شـكٍّ، ولـد عـام1950 في قريـة صغيـرة فقيـرة، في ريـف طرطـوس، تسـمى عليـان، لا يعـرف سـاكنوها مـن الدُّنيـا إلَّا تربيـة البقـر، حتَّـى إنَّهـم كانـوا يُسـكنونها داخـل بيوتهـم، الَّتـي تتكَّـون مـن غرفتيـن، الغرفـة الخارجيَّـة لهـم والدَّاخليـة للبقـر خَشْـيةً مـن السَّـرقة، لأنَّ مجتمعهـم لا يعـرف اللـه ورسـوله وعقيدتهـم على الرَّغـم مـن خرافاتهـا وكذباتهـا إلَّا أن أكثـر معتنقـي هـذه الدِّيانـة لا يعرفـون عنهـا شـيئاً، كمـا أنهـم لا يعرفـون أيَّ شـيءٍ عـن الأمانـة، وليـس للجـار حـقٌّ عندهـم، لذلـك كانـوا يخشـون مـن سـرقة أبقارهـم، وكانـت

البقـر صبـاحاً ومسـاءً تمـرُّ مـن داخـل غرفـة أهـل البيـت، لتصـل إلـى زريبتهـا، ولـك أن تتصـور حالـة البيـت المزريـة، مـن الوسـاخة والرَّوائـح والقـاذورات الَّتـي كانـوا يعيشـون فيهـا، والآن الجماعـة أصبحـوا حـكاماً وقضـاة يقـررون مصائـر الأحـرار وينتقمـون مـن أسـيادهم، بعـد أن كانـوا يبيعـون بناتهـم في سـوق النَّخاسـة إلـى المـدن المسـلمة، حـقاً جـاء وقـت انتقامكـم

ثـمَّ انتقـل فيصـل الغانـم وأهلـه إلـى قريـة الهنَّـادي في ريـف اللاذقيـة، وهـي كمثيلاتهـا مـن قـرى النُّصيريَّـة: فقـر وجهـل وغبـاء مستشـرٍ، وتطـور الوضـع بعـد أن سـرق حافـظ الأسـد الحكـم بمسـاعدة فرنسـا وأمريـكا، إلـى إجـرام وفظائـع وقتـل، وهـذا المديـر كان لـه مقولـة مشـهورة:
البـريء سـيخرج ولـو بعـد مئـة عـام، فهـل سـيخرج على رجليـه، أم محمـولاً على الأكتـاف..؟؟ الأمـر لا يهـم. وفي إحـدى زياراتـه لمهاجـع المسـجونين رأى في طريقـة جثـة هامـدة لأحـد المساكين، فقـال بصـوت عـالٍ :سـمعه كلُّ مـن كان في المهاجـع مـن قَتَـلَ هـذا المعتقـل؟ردَّ أحـد الجلاديـن بصـوت خافـت خـوفاً مـن عقوبـة قـد تقـع على رأسـه: أنـا يـا سـيِّدي

في المـرَّة القادمـة، إن فعلـت مثلهـا سـأحلق لـك شـعر رأسـك ردَّ عليـه الغانـم وتابـع: على الرَّغـم مـن أنَّـك قاتـل ولكـن لـك عنـدي مكافـأة قَيِّمـة، ضحـك جميع مرافقيـه، ومضـى في طريقـه حتَّـى دون أن يأمـر بحمـل الجثـة
حلاقـة شـعر ياسـيادة مديـر السِّـجن مقابـل جريمـة تشـمئز منهـا الدُّنيـا ومـا فيهـا..!!! حلاقـة شـعر رأس أيهـا المجـرم القاتـل لأجـل روح إنسـان.!! لاغرابـة مـن أفعالكـم فأنتـم رجـال المجـرم أسـد.

وكان دائـماً مـا يقـول لأعوانـه: خـذوا هـؤلاء بلا سـجلات وقيـود، (ويقصـد المعتقلين) وآمنـوا بـي أنَّـه لـن يسـألكم أحـد عنهـم، افعلـوا بهـم ماشـئتم، ولا تأخذكـم بهـم رأفـة ولا شـفقة
وقـد نَفـذ هـذا المجـرم أكثـر مـن عشـرة آلاف حالة إعـدام، وقـد كان هـذا الغانم،

صديقاً شخصياً للمجرم الأكبر رفعت أسد، الَّذي قتل في يوم واحد ألفاً ومئتين وخمسين رجلاً، ففي سنة 1980 عندما حاول أحد الضُّباط اغتيال حافظ أسد ولم ينجح، جاءت طائرات مروحيَّة من دمشق إلى تدمر، وعلى متنها عشرات الجنود التَّابعين لرفعت أسد، الَّذي كان يُسمى يومها بين رجاله بالرَّبّ، والعياذ بالله من الشِّرك. وجمع رجاله سجناء الإخوان في بعض المهاجع، وألقوا القنابل وأطلقوا الرَّصاص من فتحات الأبواب،وقد علت التَّكبيرات أصوات المساجين، حتَّى أسمعت كلّ سكان المنطقة

واِلتصقت أشلاء من نحسبهم شهداء مظلومين، على حيطان غرف الزَّنزانات، وبقيت آثار الدماء شاهدة على أفظعش عصر تمرُّ بها سوريا، ولم تفتضح الجريمة إلَّا بعد أن حاول العميد عدنان بركات عام 1981 والرَّقيب عيسى فياض، أحد مرتكبي مجزرة سجن تدمر، وهما طبعاً من الطَّائفة النُّصيريَّة، اغتيال رئيس وزراء الأردن مضر بدران، ومن المؤكد أنَّ الأوامر صدرت من رأس النِّظام الحاكم في سوريا، وقد فشلت عملية الاغتيال، وأمسك الأمن الأردني بهذا القاتل، فاعترف بالجريمتين، ووثَّقته كلّ دوائر الحكم العالميَّة ولم يُتخذ أيّ إجراء في العالم الَّذي يدَّعي الحريَّة

وهذا المسمى رفعت هو أخو الرَّئيس حافظ، كان مساعداً أوَّل في الشُّرطة يتنَّقل بين المدن والأرياف السُّوريَّة، لايملك ثمن علبة الدُّخان وكان يتسولها من كلِّ من يصاحبه، وبعد أن استولى النُّصيريون على الحكم، أصبح رئيساً لسرايا الدِّفاع الَّتي كانت تسمى سرايا الموت، وقد قتلت عشرات الآلاف في مجزرة حماة1982 من المدنيين والأطفال والعُجَّز والنِّساء، وقام بسرقة البنك المركزي، ثمَّ سافر إلى فرنسا الَّتي اِحتضنته كما هي عادتها باحتضان عملائها
وهذا الأسد المجرم رفعت قتل معارضيه بكلِّ إجرام وفظاعة، ففي إحدى المرَّات أحضر ضابطاً يسمى عبد الرزاق لأجل إعدامه، فلمْ يعدمه، وكرَّر الأمر خمسين مرَّة وفي آخر الأمر أعدمه زيادة في الطُّغيان والحقارة، وقام

رجال رفعت بتمزيق جسده إلى مئات القطع، ورموه لتأكله وحوش البراري. لقد صدَّق نفسه حقيقة أنَّه ربٌّ ويستطيع أن يحيي ويميت، ولقد ظنَّ هذا الظَّالم رئيس مافيا سرايا الدِّفاع أيضاً أنَّ الله لا يرى، وأنَّه قد وكَلَه ليقيم شريعته الخاصَّة على الأرض، فأصبح يتصرَّف كربٍّ حقيقي، واجب على النَّاس أن يعبدوه، وقد كان اسمه كفيلاً بإسقاط الحوامل وأن يجعل الرِّجال تختفي في بيوتها أشهراً طويلة

وتابع القاضي سليمان كلامه: وبما أنَّك حامل للجنسيَّة الفرنسيَّة، وتعمل مع أعداء الوطن وخاصَّة منظمة حقوق الإنسان، سأربي بك حقوق الإنسان والحيوان ولأجعلنَّك عبرة لمن يِعتبر، لقد حكمتك أيها الحيوان خمسة وعشرين عاماً. عاماً واحداً لأنَّك سوري، وأربعاً وعشرين سنة لأنَّك فرنسي عميل خائن للأرض والوطن وسيِّدهما، وسأوصي بك مدير السِّجن لتكون من أوائل المعذبين، انقلع أيُّها الحلبي الوسخ

حلبي وسخ! وأين كنت عندما كان أهل حلب أهل الحضارة والنَّظافة! بالتأكيد كنت تنام في حضن البقر والجواميس، وحتَّى إنَّك لم تكن تدخل الحمام إلَّا في عيد النَّيروز، هذا العيد المجوسي عندما يحلُّ الإله بملوك فارس فيتعبَّدون النَّار تقرباً منه، وأنَّتم تنتسبون إلى هذه العقائد الَّتي تعبد النار وتقدس وتؤلِّه الملوك والبشر قال سامح في نفسه واستطرد من أنت أيها اللَّقيط!! حتَّى تتحكم بأهل حلب وأشراف سوريا وتطلق عليهم أوصافاً تنطبق عليك، وعلى عائلتك
وهذا ما حصل مع سامح وهو الآن ينتظر الفرج، ولكن من أين لا يعلم.

وحوش آدميَّة

وبعد أن رُحلت ايليت إلى فرنسا من سوريا في الطائرة العائدة مباشرة من مطار حلب وصلت إلى باريس، ولم تذهب إلى بيتها، بل اتّجهت إلى مقر منظمة حقوق الإنسان الَّتي تعمل بها وسامح، دخلت المبنى وطلبت لقاء رئيس المنظمة لأمر في غاية الخطورة، وبعد لحظات دخلت إلى غرفته وشرحت له بإسهاب ما جرى معها في مطار حلب، وكيف أنهم اقتادوا سامحاً، وأعادوها إلى فرنسا دون أن تعرف مصيره، وما إنَّ انتهت حتَّى رفع سماعة التِّلفون، وطلب من المترجم أنْ يوصله برئيس منظمة حقوق الإنسان في سوريا، الَّذي ردَّ على الهاتف حالما رنَّ. سأل المدير الفرنسي محسناً إذا كانَّ يعرف أيّ شيءٍ عن مصير سامح..؟؟ وكيف يسمح للسلطات الأمنيَّة أنْ تعتقله..؟ فقد كان ذاهباً تلبية لدعوة رسميَّة من منظمة محسن السُّوريَّة، الَّذي أنكر معرفته أنَّ سامحاً وصل إلى سوريا وأنَّه كان منتظراً لقاءه ولكنَّه لم يأتِ.

طبعاً رئيس منظمة حقوق الإنسان، وكلُّ من يعمل بحقوق الإنسان في سوريا، مرتبطين بأجهزة أمن الدَّولة، ولا يستطيعون القيام بأيِّ حركة، إلَّا بعد إشارة من جهاز الأمن، حتَّى إن عليهم بعد العودة من كلِّ اجتماع يجرونه في الخارج، أن يقدموا تقريراً مفصلاً عن الحاضرين، وعمَّا دار في الاجتماع، وعن كلِّ كلمة قيلت في أرجائه، وللعلم فهم يسافرون على نفقة الدولة، بمعنى أنَّهم يبيعون أنفسهم مقابل دراهم قليلة

وأردف محسن: أنَّه سيتابع أمر سامح وسيتقصى عن الوضع، وإن شاء الله سيصل إلى نتيجة إيجابيَّة
شعرت إيليت بالِارتياح، فهذا رئيس حقوق الإنسان السُّوريَّة، وحسبت أنَّ

المنظمة كمثيلاتها بأوروبا، تستطيع أن تردَّ المظالم، أو حتَّى أن تجيِّش الرَّأي العام لتحصل على نتيجة طيبة، لم تعرف ولم تفهم ما كنه دولة الأسد، وما حزب البعث الَّذي يحكم باسمه

مضى الأسبوعان الأوَّل والثَّاني، وإيليت تتواصل مع الحاج وأم سامح، دون أي خبر إلَّا أنَّه بسجن تدمر، مرَّ شهر ولم تتخذ منظمة حقوق الإنسان أيّ إجراء ولاصوت ولاحس تواصلت المنظمة الفرنسية بالفاكس مرَّات عديدة مع المنظمة السُّوريَّة، الَّتي ردَّت رداً واحداً، لا علم لنا بدخول سامح إلى حدودنا، ثمَّ لمْ تعد المنظمة تجاوب على أي اتِّصال، ولا حتَّى المخبر محسن رئيس المنظمة على أي اتِّصال أو فاكس، ممَّا جعل الفرنسيين يتجهون إلى البرلمان الفرنسي، الَّذي في ناقش جلسة علنية وضع سامح فرنسي الجنسيَّة، وطالب السُّلطات السُّوريَّة بالإفراج عنه، وصعَّد الموقف مع الحكومة، ضاغطاً عليها لمعرفة مصيره، وما آلت إليه أموره

الحقيقة بعد الحكم على سامح شعر أنَّه يعامل معاملة خاصَّة عن نزلاء سجن تدمر، فقد كان الجلادون يتحاشون الضَّرب عنه بشكل متعمد، ولم يعد يُضرب على قدميه كبقيَّة السُّجناء، حتَّى إن المساعد أوَّل المسؤول عن المهاجع، كان يستدعيه مرَّات كثيرة، ويطعمه طعاماً يحلم السُّجناء في تذوقه، فقد جاءت التَّعليمات إلى مدير السِّجن، أن ينتبهوا إلى حياة هذا السَّجين، ولكن بقيَّة أموره سارت كما تسير أمور رفاقه

وكان هناك سجان يدعى أحمد السِّباعي، وهو الوحيد الَّذي يعامل المسجونين برفقٍ، وكلَّما فَتح باب الزِّنزانة عليهم يقول لهم: عسى الله أن يجعل لكم مخرجاً، حتَّى إنَّه كان لا يضربهم ولا يوجه لهم كلمات لاذعة
اِفتقدوه بضعة أيام وعندما سألوا عنه، قيل لهم: إنَّ هذا الخائن العميل قد أُعدم وقُتِلَ شرَّ قِتلة
لأجل رقة قلبه وطيبة سريرته ومعاملته لهؤلاء المساكين المظلومين

معاملة حسنة، ولأنَّه يكره أن يَظْلِمَ، أو يُظْلَمَ
أعدمه الوحوش لأنَّهم يريدون من جميع من يعمل معهم أن يكونوا مفترسين، آكلي لحوم البشر، الذين لا رأفة في قلوبهم أو رحمة.

فكانوا يختارون مصاصي الدِّماء من البشر، ليكونوا جلادين وأعواناً.
اليوم أخذ المساعد سامحاً إلى الطَّبيب، الَّذي فحصه فحصاً متأنياً، وأعطاه حبَّ فيتامين، وهذا النَّوع من الحبوب لم يرَه السُّجناء منذ سنوات، فقد تفشى مرض الكوليرا والسِّل والجرب، لسنوات ومات فيه كثير من المعتقلين، دون أن ينالوا أيّة حقوق طبية أو علاج، وقد كان المسجونون يحكون ظهورهم بظهور بعضهم بعد أن تفشى الجرب بينهم، ليباشروا ساعات من الحك المتواصل، ممَّا أدى إلى قروح وحالات مرضية ميئوس منها

وكان عليهم أن يحلقوا لحاهم يومياً ببولهم بدلاً من الماء، ومن لمْ يفعل فالويل كلُّ الويل والثبور له
سأل سامح صديقه سليمان عن الطَّبيب البيطري السَّيِّد عامر،لمَ لمْ يعد يراه في المهجع؟هل انتقل إلى مهجع آخر..؟
ردَّ عليه بل انتقل إلى ربٍّ كريم، فكان كثير ممَّن حكم عليهم بالإعدام، أو من المسجونين يتمنُّون أن يعدموا ليتخلَّصوا من جهنَّم أسد، ويخرجوا إلى أبواب السَّماء هناك عند ربٍّ عادل، لا يظلم مثقال ذرَّة

هناك في السَّماء يستطيعون أن يشكوا لله ظالمهم، ويقصُّون له ما قاسوه من هؤلاء القوم، من دون أن يكون هناك مخبر ينقل كلامهم، ليعيدهم إلى حضن جحيم أسد
حتَّى إن وصف هذا السِّجن بجهنَّم قد لا يفيه حقه من التَّعبير.
نعم يا صديقي ويا أخي سامح، لقد انتقل إلى ربّ رحيم، فمنذ يومين قدِّم للمحكمة، وسأله القاضي سليمان: هل أنت عامر الطَّبيب البيطري

العامـل في صحـة بيطـرة اللاذقيـة..؟؟
نعم أنا هو.
أتذكر بقرة أبي سليمان الَّتي فحصتها منذ ثلاثين عاماً..؟؟

واللـه لقـد فحصـت بقـراً كثيـراً طيلـة حياتـي المهنيَّـة فلا أتذكرهـا، ولكنَّـي أذكـر أبـا سـليمان.

قـال القاضـي: هـذا أبـي، وتلـك بقرتنـا الوحيـدة الَّتـي كنـا نسـتعين بهـا على الحيـاة
دخـل السُّـرور إلـى قلـب الطَّبيـب عامـر، فأبـو سـليمان كان يحبُّـه ويقـدره، وكان يدعـوه كلمـا مـرَّ عليـه إلـى كأس مـن الشَّـاي، ويجلـس معـه الطَّبيـب عامـر في بسـتانه الصَّغيـر مجـاملاً إيـاه، وهـا هـو ابنـه أصبـح قاضـياً، ولـن ينسـى صحبـة أبيـه
تابع القاضي: هل تعلَّم أنَّي سأحكم عليك بالإعدام.؟

لم يصدق الطَّبيب ما سمعه.
الإعـدام..!! لأجـل مـاذا..؟؟ فـكل تهمتـي أنَّـي أوصلـت شـاباً كان واقـفاً على قارعـة الطَّريـق إلـى بيتـه لـيلاً، وقـد اُعتقـل الشَّـاب لاحـقاً، واُتُّهـم أنَّـه مـن جماعـة الإخـوان، وقـد يكـون الاتِّهـام بـاطلاً، ككثيـر ممَّـن اعتقلـوا زوراً وبهتـاناً.
ردَّ عليـه القاضـي: لـن أعدمـك لأجـل تهمتـك، ولكنِّـي سـأعدمك مـن أجـل بقرتنا الَّتـي نفقـت بعـد يومـين مـن علاجـك لهـا، ولا تنـسَ يـا سـيِّد عامـر أن تُسـلّم على أبـي بالآخـرة، وتقـول لـه: إنَّ ابنـك سـليمان قـد أخـذ بثـأر بقرتـك مـن قاتلهـا

يا الله صاح سامح: ما هذه القسوة..!!!حياة بقرة لقاء حياة إنسان؟
قـال سـليمان: ألـم أقـل لـك سـابقاً لا أمـل لـي في الحيـاة إلَّا الاِنتقـام مـن هـؤلاء المجرمين

اليـوم مسـاءً وفي سـاحة السِّـجن لمـس سـليمان يـد أحـد الحـراس بغيـر قصـد، فمـا كان مـن الحـارس إلاَّ أنَّـه رفـع الهـراوة وضربه على ظهـره ضربـة وقعت عليه كالصَّاعقـة فشـلت جميـع أعضائـه، ثـمَّ سـحبوه إلـى زنزانـة صغيـرة لا تتعـدى مسـاحة المتـر الواحـد، وسـقوه لتريـن مـن الماء وربطـوا يـده إلـى الخلـف ثـمَّ قامـوا بربـط عضـوه الذكـري، تحمَّـل ألـم حصـر البـول لسـاعة ثـمَّ أصبـح يصيـح كمجنـون شـعر بالخطـر، حتَّـى كادت مثانتـه تنفجـر، وكلَّمـا علا صوتـه ضحـك الـجلادون ضحـكات أعلى مـن صـوت الألم،إلـى أن أخرجـوه إلـى السَّـاحة وطلبـوا منـه أن ينبـح مثـل الكلـب، ثـمَّ ينهـق كالحمـار، ومـن بعدهـا عليـه أن يلعـق الأرض بلسـانه، ومـا إن فعـل حتَّـى فكـوا قيـوده وفـك ربطـة عضـوه، فبـال على نفسـه في منظـر جعـل الحـراس ينقلبـون على ظهورهـم مـن شـدَّة الضَّحـك، وجعـل مـن ينظـر إليـه مـن المعتقليـن يبكـي بدمـاء قلبـه مـن شـدَّة الحـزن

قـد لا يصـدق القـارئ بعـضاً ممَّـا جـاء في هـذه الرِّوايـة، ولكـن مـن حضـر وشـاهد وعايـش هـذه الحقبـة، قـد يعلـم قصـصاً أكثـر هـولاً ممَّـا كُتـب تشـيب منهـا الوِّلـدان وقـد تضـع الحامـل حملهـا

رجـع سـليمان إلـى مهجعـه مكسـور الخاطـر محطـم القلـب، ذليـل النَّفـس، لقـد فعلـوا بنـا شـيئاً تـكاد السَّـموات يتفطَّـرن منـه وتنشـق الأرض وتخـرُّ الجبـال هـدًّا

شيء لا يحتمله مخلوق على وجه اليابسة، قال باكياً وهو يخاطب سامحاً.
لنصبـر يـا أخـي فأنـت مـن تعلِّمنـا الصَّبـر، وأنـت مـن تقـف معنـا في الشَّـدائد، ومـا زال سـامح يحدثـه ويطيـب خاطـره، حتَّـى هـدأ ونـام على ذراعيـه كطفـل صغيـر

أخلاق شاب مسلم

في المساء وبعد أن تمدَّدوا ليناموا وضعية علبة السَّردين، تحرَّك أحد المساجين وقد كان طاعناً في السِّن مريضاً، حتَّى إنَّه لا يستطيع أن يمشي أكثر من خطوات، فصاح الحارس: إنَّه قد عَلَّمَ المهجع، وهذا يعني أنَّ أحد المساجين قد تحرَّك، وأنَّ عليه عقاباً شديداً في النَّهار

وعند انقضاء ساعات اللَّيل وبزوغ الضَّوء.

طلب الحارس من رئيس المهجع أن يُخرج الرَّجل الَّذي عُلِّمَ.

همَّ الشَّيخ المريض أنْ يخرج، ولكن أحد الشَّباب من مدينة إعزاز وهي في ريف حلب واسمه صلاح عبد الكريم، قام بمنعه قائلًا: يا عمّ أنت مريض وطاعن في السِّن، ولن تستطيع أن تتحمَّل عذابهم، فاليوم الظَّاهر يوم حامٍ والعذاب شديد

حاول الشَّيخ أن يثنيه عن فكره، ولكنَّ الشَّاب أصرَّ وخرج مسرعاً إلى ساحة السِّجن قبل أن يخرج العجوز

وفوراً قام الجلاد برميه على ظهره، والعصبة على وجهه حتَّى لا يراه، فالعصبة كانت دائمة على الأعين حالما يخرج السُّجناء من الزِّنزانة. ثمَّ قام ضربه بحذائه على بطنه ضربات كثيرة، وبعدها رفع الكرباج وانهال عليه بكل ما أوتي من قوة، وأخيراً أسرَّ له الجلاد الآخر أن ينهي حياته، وأشار عليه أن يضربه في منتصف الصَّدر، ففعل الجلاد بما أشار عليه صديقه، ورفع قدمه وبكلِّ قوة ضربه على منتصف صدره، فقطع النَّفس ظنَّ الجلاد أنَّه فارق الحياة، تركه مغمياً عليه، وبعد ربع ساعة سحبوه إلى الزِّنزانة، إلى أن يأتي الطَّبيب ويعلن الوفاة، وما إن رموه داخل المهجع حتى رُدَّت الرُّوح إليه، وكان في المهجع أحد الأطباء من المسجونين، قام بفحصه وقد تفاجأ جميع من في المهجع أنَّ الشَّاب صلاحاً يتمتع بصحة جيدة، وحتَّى بعد فترة ذهبت عنه أعراض المرض القديم، وكأنَّ ضربة الوحش على صدره

آذنت له بالشِّفاء، فكان صلاح دائماً ما يقول للعجوز: {وهل جزاء الإحسان إلَّا الإحسان}..؟ لقد شافاني ربِّي بسببك، وكثيراً ما يقبِّل يدي الشَّيخ مداعباً له قائلًا: هل جزاء الإحسان إلَّا الإحسان
كلّ أحداث السَّاحة كان يراقبها السُّجناء من خلال فتحة دبوس في الباب الحديدي المطل على السَّاحة، فالحاجة أمُّ الاختراع، فقد رشوا الحارس ليحضر لهم قليلا من مادة الكلور، ووضعوها على رأس دبوس وحاولوا خرق الباب، وكرَّروا المحاولة كثيراً، إلى أن نجحوا فأصبحوا يراقبون الوضع من خلال هذا الثُّقب الصَّغير

صباحاً جمعوا المساجين في السَّاحة، لأجل أن يكسروا كرامة عميد معتقل، طلب منه الجلاد أن يشرب ماء المجاري فرفض، وقد كان العميد طويلاً عريض المنكبين، ذا شخصيَّة قويَّة، دفعه الجلاد إلى ساقية المجرور، فلكمه العميد على وجهه ضربة جعلته يرتمي مطروحاً على الأرض، وما إن شاهد رفاق الجلاد هذا المنظر، حتَّى اِنقضوا على الضَّابط وتكالبوا عليه ورموه في السَّاقية، وأمر المساعد أن يضربوه بهراواتهم على رأسه، فانهالوا بالضَّرب عليه إلى أن لفظ آخر أنفاسه
نظر المساعد إلى جثة الضَّابط البطل وبصق عليها قائلًا : اِدفنوه ككلب شارد، واِلتفت إلى الحاضرين صارخاً: كل من يتطاول على قائدنا أو حزبنا أو رجالنا فهذا مصيره، وأنَّتم جميع أيُّها الخونة ستكون نهايتكم مثل هذا الكلب
رجع التُّعساء إلى مهاجعهم وفي قلب كلّ منهم غصة تكاد تخنقه، ولكن كمْ علا مقام هذا الضَّابط البطل في أعين السُّجناء !!!وكمْ كان عظيماً !!ولو كان كثير من الضُّباط مثل هذا العملاق، لما استطاع هؤلاء القتلة سرقة سوريا وشعبها قال سامح عندما حشروا في مهاجعهم

زيارة غير متوقعة

اليوم الحاج جاء باكراً إلى لبيت الَّذي تسكنه الأشباح قائلاً لأمِّ سامح: لقد سمعت شيئاً سيدخل السُّرور إلى قلبك
أنت تعلم يا حاج أنَّ قلبي أصبح كقطعة بالية لا يقوى على الفرح لأيِّ خبر
حتَّى ولو كان الخبر يمسُّ سامحاً.
تغير لونها وقالت صارخةً هل سيطلقون سراحه..؟؟ هل سأراه حياً..؟؟هل سأضمه بين يدي مرَّة أخرى..؟؟
تمهلي يا أمَّ سامح سأخبرك، اليوم أتى لعندي جاري أبو محمود، وأخبرني أنَّهم يسمحون برؤية المعتقلين
كيف ومتَّى..؟؟

في أيِّ وقت تشائين، ولكن علينا أن نذهب إلى قريِّة مدير سجن تدمر فيصل الغانم، ونقدِّم ذهباً لأمِّه أقله مئتا غرام، ثمَّ ترسل ورقة لابنها من أجل السَّماح لنا برؤية ابننا

والواقع أنَّ هذا الغانم كان عقيداً في الفرقة الخامسة، فقيراً لا يملك إلَّا مرتبه ومايسرقه من مطعم الفرقة، إلى أن اِنتدبوه إلى سجن تدمر بعد أن علموا بمواهبه الدَّموية، وقد وجد في هذه الطَّريقة وسيلة لجمع الأموال، الَّتي بنى منها قصراً في قرية الهنّادي، بعد أن كان يسكن مع البقر، وأصبح من ذوي الأموال وحتَّى إن غازي كنعان الَّذي كان حينها رئيس فرع الأمن العسكري في حمص، وجدَّ طريقةً ماكرة لابتزاز أهل السُّجناء، فصار يطلب السُّجناء من تدمر إلى فرعه في حمص، متعللاً أن هناك بعض المستجدات في التَّحقيق، فيُحضر السَّجين من سجن تدمر، ويأخذ من أهل

المعتقـل أمـوالاً طائلـة، مقابـل نصـف سـاعة تجلسـها العائلـة مـع المعتقـل، ثـمَّ يرجعـه إلـى تدمـر مـن حيـث أتـى بـه

هكـذا هـمْ رجـال أسـد، لـم يعرفـوا في صغرهـم إلَّا الجبـل والفقـر والحقـد، ولا ديـن وعقيـدة أو إنسـانيَّة تردَّعهـم، وعندمـا كبـروا أصبحـوا مجرميـن بالفطـرة امـتلأت قلـب أمِّ سـامح بهجـةً وقالـت لـه: سـألبس ملابـس الخـروج ولنذهـب إلـى قريـة أمِّ فيصـل لأرى فلـذة كبـدي

على رسـلك، غـداً سـنذهب، فاليـوم أصبـح الوقـت بعـد الظَّهيـرة، والقريـة نائية في جبـال اللاذقيـة، وطريقهـا صعـب ولـن أسـتطيع أن أقـود سـيَّارتي في هـذا الطريـق الوعـر، فغـداً صبـاحاً سـننطلق بـإذن اللـه
اِرتـدت أمُّ سـامح ملابـس الخـروج ولـم تخلعهـا، وظلـت طيلـة مـا تبقـى مـن اللَّيـل تتمشـى في البيـت جيئـةً وذهـاباً، تخـرج مـن غرفتهـا إلـى الشُّـرفة وتعـود للمطبـخ حائـرةً لا تعلـم كيـف سـتمضي بقيَّـة الوقـت، فغـداً أوَّل الطَّريـق لرؤيـة ابنهـا الحبيـب

واسـتمرت على هـذا المنـوال إلـى أن غلبهـا النَّـوم، فتمـددت على الأريكـة في صالـون بيتهـا، وعندمـا حانـت السَّـاعة الرَّابعـة صبـاحاً أيقظـت زوجهـا خـوفاً مـن تأخرهـم، فقـام متثـاقلاً وهيَّـأ نفسـه، واِنطلقـا مـن حلـب مارين بمدينـة حمـص ثـمَّ إلـى اللاذقيـة فجبـال النُّصيريَّـة صاعديـن إلـى قريـة الهنّـادي حيـث تسـكن المـدام أمُّ فيصـل، لـمْ يجـدا صعوبـة بالوصـول إلـى البيـت، فـكلُّ مـن في القريـة يعـرف البيـت ويعـرف القصِّـة، فقـد أصبـح مـزاراً لـكلِّ عائلـة ميسـورة تريـد أن تـرى ابنهـا بعـد سـنوات طويلـة مـن الغيـاب، وصلا إلـى بيـتٍ يتوسـط القريـة ذي بنـاءٍ حديـث، يتألـف مـن أربـع غـرف، كانـت الحركـة في جـواره كثيـرة، فهنـاك عـدد مـن الشُّـبان واقفيـن على بـاب البيـت، يعطـون الـدّور لمـن شـاء أن يقابـل (الليـدي) أمَّ فيصـل ويزودوهـم بالتَّعليمـات ويتأكَّـدوا أنَّهـم يحملـون المبلـغ

دخـل الحـاج وأم سـامح على أميـرة ويلـز(ديانـا) أم فيصـل، فوجداهـا بثوبهـا الرِّيفـي العتيـق، ووجـدا التَّجاعيـد على يدهـا وعلى وجههـا كأرض لـم تسـقَ مـن سـنين، وبصراحـة لا تعييـب على خلـق اللـه، ولكـن السَّـيِّدة لا تمـلء العيـن، ولا حتَّـى جـزءاً منهـا، فهـذه السَّـيِّدة العظيمـة ذات الأصـول الضَّاربـة بالعراقـة، لـم تكـن إلَّا خادمـة في بيـوت أهـل السُّـنة في اللاذقيـة، ولـم تكـن يـوماً مـا سـيِّدة بـل كانـت سـارقة للبيـض مـن جيرانهـا، حتَّـى إنَّهـا كانـت كثيـراً مـا تنْشـأ معـارك بينهـا وبيـن جيرانهـا مـن أجـل الدَّجـاج والبيـض، وتنتهـي المسـألة بـأن تحلـف أم فيصـل بالأمـام علـيٍّ، أنَّهـا لـم ترَ ولم تسـرق بيـض جيرانهـا ودجاجهم، وهـي قـد أطعمتهـا لأولَادهـا وزوجهـا على الفطـور والغـداء والعشـاء؛ فلـم تكـن تملـك إلَّا مـا تَسـرقه، ولمَّا كبـر ابنهـا تابعـا هوايتهمـا مـعاً

قـال الحـاج أبـو سـامح: أطـال اللـه في عمـرك يـا سـيِّدتنا وتـاج رأسـنا أمَّ العقيـد العظيـم فيصل
قالت بلا اكتراث: أهلًا، اسم معتقلكم..؟؟
أعطاهـا الاسـم فأمسـكت الورقـة بالمقلـوب، وأعطتهـا للرَّجـل الَّـذي بجانبهـا، غـاب دقائـق ورجـع قـائلاً إنِّـه موجـود بسـجن تدمـر

وقـد كان هـذا الرَّجـل يدخـل إلـى الغرفـة المجـاورة، ويتصـل بالسِّـجن ليعلـم هـل المعتقـل مـا يـزال حـيّاً أم قـد تـمَّ إعدامـه
الحمـد للـه صاحـت أم سـامح، رمقتهـا الأميـرة ديانا بنظـرات اسـتخفاف، فأبناؤكم لايسـاوون عندنـا فـردة حذاء، فلـمَ أنت سـعيدة..؟؟
ثمَّ أشارت للحاج أن يعطي الذَّهب للرَّجل.
فتـح الحـاج الحقيبـة الصَّغيـرة، وأخـرج منهـا ربـع كيلـو مـن الذَّهـب، فقـد أحضـر لهـا زيـادة عـن الطَّلـب لأجـل أن ترضـى سـيِّدة القصـور، أخذهـا الرَّجل إلـى الغرفة الثَّانيـة مـن أجـل أن يتفحَّصهـا ويعـرف مقدارهـا، رجـع بعـد لحظـات قـائلًا كلُّ شـيء جاهـز، وأعطاهـا ورقـة كان قـد كُتـب عليهـا: إلـى ولـدي الحبيـب سـيادة العقيـد فيصـل

اسـمح لهـذه العائلـة برؤيـة ابنهـم سـامح، ووقعـت أسـفل الورقـة بخـط يشـبه خربشـة الدَّجـاج، فهـي أميـة لا تعـرف القـراءة ولا الكتابـة، ومـن أيـن لها أن تعـرف وكلّ حياتها قضتها وهـي (تقشـقش حطـباً) ثـمَّ طلبـت منهما المغـادرة، أراد الحـاج أن يشـكرها ولكـن أشـارت إليـه الملكـة ألزابيـت أن اِنصرفـوا فلاوقـت لديهـا

الحقيقـة أن هـذه المـرأة عندمـا كانـت تريـد أن يرضـى عليهـا سـيِّدها أيـام الصِّبـا، تقـوم بلعـق حذائـه بلسـانها ليكـون أكثـر لمعـاناً
وبعـد عـدة أشـهر تـوفي ابنهـا الأصغـر بحـادث سـيَّارة، فأصبحـت أكثـر كـرهاً لأهـل السُّـنة، لأنَّهـا اِعتقـدت أنَّ سـبب مقتـل ابنهـا دعـاء أهـل المعتقليـن المغتصبـة أموالهـم عليهـا، على الرَّغـم مـن كلِّ الخدمـات الَّتـي قدمتهـا لهـم خـرج الحـاج وأمُّ سـامح مُتَّجهيـن إلـى حمـص بسـيَّارتهما الَّتـي يقودهـا الحـاج بسـرعة عاليـة، وكأنَّـه بسـباق (رالـي) للسـيارات، وصلا إلـى حمـص واشـتريا كلَّ أنـواع الحلويـات، وأنـواع المشـاوي والفاكهـة واللِّبـاس، وكلَّ مـا وصلـت لهمـا أيدهمـا، متَّجهيـن إلـى سـجن تدمـر وكأنَّمـا وصلاه دون زمـن

وقفـا عنـد البـاب الخارجـي، وقـدَّم الحـاج الورقـة للحـارس الَّـذي طلـب منهمـا النُّـزول مـن السَّـيارة، وفتـح لهمـا البـاب الرَّئيـس، وسـلَّمهم لحـارس آخـر أخذهـم إلـى حـارس المكتـب الإداري في السِّـجن، وبـدوره أدخلهـم إحـدى الغـرف وأمرهم بالانتظـار
نـادى الحـارس على سـامح وأخرجـه مـن الزِّنزانـة، وقد تعـود أن يطلبه المسـاعد كثيـراً، ولكـن هـذه المـرَّة نحـن نسـير باتِّجـاه المبنـي الإداري، اللـه يعطينـا خيـر هـذا اليـوم قـال في نفسـه

مشـى مـع الحـارس خافـضاً رأسـه كمـا هـي العـادة، لا يـرى إلَّا موضـع قدميـه، فممنـوع أن يرفـع السَّـجين رأسـه عاليـاً، فعليـه دائـماً خفضـه زيـادة في الـذُّل والإهانـة والتَّجبـر

في الغرفة الرَّابعة على اليسار من المبنى، فتح الحارس الباب ودفع سامحاً بشكل خفيف، وكمْ كانت المفاجأة كبيرة عندما رأى أمَّه وأباه يقفان مواجهةً !! نسي سامح كلّ الجراح القدمية التَّي أثرت على علاقته بأبيه وغفر لنفسه ولأبيه، وارتمى على قدمي أمِّه باكياً، رفعاه واحتضناه واستمروا بالبكاء لعدة دقائق، ولمْ يقطعها إلَّا صوت الحاج قائلاً: كفى يا أمَّ سامح دعينا نتمتع بسماع صوته، والنَّظر إلى وجهه

جلسوا على كراسي بالية لم يعتد الحاج الجلوس على مثلها من قبل، تكلَّموا كثيراً عن سامح وحياته وصغره وحبُّهم له وفقدانهم لحضوره، وأنَّهم حاولوا وسيحاولون إطلاق سراحه، حتَّى لو دفع أبو سامح كلَّ أمواله، قابلهم سامح بكلِّ حبٍّ ووجه باش، فهم أهله رغم ما كان يحضر بذهنه من القديم، وما إن شارف اللِّقاء على النِّهاية، وبعد أن أخبره أبوه أنَّ إيليت تتصل بهم، وأنَّ قضيته تتفاعل في فرنسا حتَّى وصلت إلى البرلمان، وأصبحت قضية رأيٍّ عام، وستصل إلى الرَّئيس الفرنسي فرانسوا ميتران، وإن شاء الله ستكون النَّتيجة إيجابيَّة، أدخل إلى قلب سامح كثير من الأمل والسُّرور أنَّ إيليت لن تنساه، وأن بلده فرنسا تطالب فيه، وقبل أن يودعهما قال: هل تعلم يا أبي أنَّ سليمان صديقي القديم مسجوناً معي..؟؟
مسجون معك؟! ما هذه الصُّدفة الغريبة؟
وهل تعلم يا أبي أنَّ كلَّ رفاقه قد تم إعدامهم..؟؟

عقدت الدَّهشة لسان الحاج، ولم يستطع أن ينطق أو يردَّ بأيّة كلمة، وأطرق برأسه إلى الأرض، محاولاً تجنب النَّظر إلى وجه سامح
دخل الحارس معلناً انتهاء الزِّيارة، فعليهم المغادرة، عانق سامح أمَّه وأباه بشدَّة، ولكن دون أن ينظر الحاج حتَّى ولو نظرة وداع بوجه ابنه

خرجا من السِّجن وعاد سامح إلى مهجعه، وقد حمل مابقي من الأغراض بعد أن سرق الحراس أكثرها

دخل على رفاق الزِّنزانة وقد بدت الابتسامة على وجوه جميع الرِّفاق وهو يوزع الأغراض والطَّعام بينهم بالتَّساوي، فما شاهدوه اليوم وما أكلوه لم يتذوَّقوه منذ سنين.

وفي طريق عودة الحاج وزوجته شعر بضيق في صدره وشعر أنَّه بحاجة لجرعة هواء، فوقف باستراحة على الطَّريق العام بين حمص وحماة جلس وزوجته إلى الطَّاولة التَّي هي في مدخل الاستراحة، شعر أنَّ سكاكين تقطِّع قلبه،وحدَّث نفسه أنَّه تسبب بقتل العديد من الشَّباب، وتسبب بوفاة أبي سليمان ولم يعلم كيف سيلاقي الله على هذه الحالة وهو حامل كلَّ هذه الآثام.

أنا لمْ أقصد أن أضرَّ بسليمان ورفاقه. إنَّما أردت حماية ابني فحسب، يا ربَّ سامحني فقد ظلمت نفسي وظلمت جميع من معي، ولئن أطلت في عمري لأكفرنَّ عن جميع أخطائي وهفواتي، ولن أترك ولدي سليمان أبداً، وسأتصدَّق بشطرٍ من أموالي إلى كلِّ من آذيته، وما زال يكلِّم نفسه ويلومها، وما زال قلبه يدقُّ بسرعة وترتفع دقاته متسارعة، إلى أن توقف القلب، ولفظ الحاج أنفاسه الأخيرة، وانتهى تاريخه في الدُّنيا، وبدأ يوم الحساب، وحمل صحيفته إلى الله ليقضي بعدله بما كانوا فيه يختلفون.
خَرَّ رأس الحاج على الطَّاولة، وصاحت أمُّ سامح على الحاضرين طالبة المساعدة، ولما جاءت سيَّارة الإسعاف كان قد ودَّع الحياة
لقد مات الحاج بسبب حزنه وكمده على مشاركته بقتل هؤلاء الشُّبان الأبرياء، مات وهو يدعو ربه أن يغفر له، مات وترك ابنه في سجنه ولم يستطع فعل له أيّ شيء

إخلاء سبيل

جلس سامح في الزِّنزانة بين رفاقه وقد اِرِّتسمت الاِبتسامة على وجهه، ودخلت السَّعادة إلى قلبه، وكأنَّه ملك كنوز سليمان، فقد وزع بعضاً من الملابس الَّتي أتى بها الحاج عليهم

فالبارحة وبالصُّدفة، كانَّ أحد السُّجناء يخيط كنزته الصُّوفية المهترئة بمسمار خلعه من المكنسة، وهو ذلك المسمار عينه الَّذي يقوم الطَّبيب يحيى ببرده بواسطة حديدة صغيرة أخرجوها أيضاً من المكنسة، لإجرغء عمليَّة جراحيَّة مستعجلة بقدم أحد الشَّباب الَّتي تقرَّحت، فإما البتر وإما شق القدم بهذا المسمار الصَّدئ، الَّذي ربما يموت الشَّاب بسبب مضاعفات العمليَّة، وبما أنَّه ليس هناك علاج آخر في السِّجن، فعليهم ابتكار أيّ شيء لكيلا يفقدوا رجل هذا الشَّاب، استمروا في برد المسمار لعدة أيام، وعندما جهز المسمار أمسكه الطَّبيب يحيى ووضع قطعة قماش في فم الشَّاب حتَّى لا يصدر صوتاً، وغرز المسمار في قدمه المتورِّمة وقد تجمع عدد من الرِّجال وأمسكوا بالشَّاب، حتَّى لا يصرخ فيفضحهم، ويلاقوا ضرباً مبرحاً من الجلادين، وبعد لحظات أغمي على الشَّاب، وقام الطَّبيب بتنظيف الجرح ووضع عليه قليلاً من اللَّبن، ولفه ببعض الخرق البالية من لباس الشَّاب، وقد كان لطف الله حاضراً فكلل الأمر بالنَّجاح

في سجن أسد كلُّ شيء ممنوع إلَّا الموت، في جحيم تدمر كلُّ من يدخل مفقود، في جهنَّم أسد لا شيء إلَّا العذاب والموت.

البارحة أخبرهم أحد الشَّباب أنَّه أكل وجبة دسمة لم يفكر في حياته أن يأكل مثلها، ومن يحزر ماهي سيطعمه خروفاً محشياً عندما يخرجون

من هذا الجحيم، أصبح كلٌّ يتحزر ولم يصل أحد منهم إلى نتيجة، إلى أن قال الشَّاب: لقد أطعمني الجلاد البارحة لحماً ولكن غير شكل، فبعد أن مضغتها أخبرني أنَّي قد أكلت فأراً ميتاً

أخذ جميعهم بالضَّحك، فلم يعد هناك ما يجعلهم تعساء، فقد شاهدوا الموت وجرَّبوا كلَّ أنواع العذاب النَّفسي والجسدي، حتَّى أصبحت قلوب من استطاع أن يعيش منهم كحجر أصمٍ، لا يتغلغل الماء إلى داخله مهما حاول.
واستمرت إيليت في أعمالها للكشف عن مصير سامح وإطلاق سراحه.

اليوم البرلمان الفرنسي خاطب البرلمان السُّوري، الَّذي كانت إجابته أنَّ جميع نقاط الحدود البريَّة والجويَّة والبحريَّة لم تبلِّغ عن دخول هذا الشَّاب عن طريقها إلى سوريا، وأنَّ رئيس البرلمان محمود الزعبي سيتابع هذا الأمر بنفسه، وبعد عدة خطابات بين البرلمانيين الفرنسيين والسُّوريين ولم يكن هناك فائدة، أو حتَّى أدنى محاولة بحلحلة المشكلة، رفع البرلمان القضية إلى رئيس الوزراء الفرنسي(ألان جوبيه) الَّذي دخل بوساطة مع السَّفارة السُّوريَّة بفرنسا، وشدَّد على وجوب إطلاق سراح سامح الفرنسي العامل بمنظمة حقوق الإنسان، ومع الضَّغط المتزايد من الجهات الفرنسيَّة ومنظمات حقوق الإنسان وجدَّ حافظ الأسد نفسه مضطراً أن يصدر عفواً عن هذا الخائن، وهذا ما كان، فبعد ثلاث سنوات نجحت إيليت بإطلاق سراح سامح، وعندما أتى أمر التَّرحيل إلى دمشق، شعر سامح أنَّ إيليت نجحت في مساعيها، فودَّع رفاقه الَّذي عاش معهم هذه السَّنوات القاسية من عمره، وقد أحس أنَّهم أصبحوا من بقيَّة عائلته، وجزءاً لا يتجزأ من حياته وماضيه القريب، وقبل أن يغادر اقترب من سليمان قائلاً: سأخبرك بشيء جعل حياتي كجحيم لا ينتهي، وحتَّى إذا لمْ تتفهم وضعي وتعفو عني وتغفر لي فستبقى أخي وصديقي إلى نهاية العمر
لقد خُيِّرتُ بين أن يزجَّ بي بالسِّجن أو أن أشهد عليكم شهادة زور، فاخترت

أنـا وأبـي أن أشـهد عليكـم زوراً، وقـد كنـت سـبباً في إعـدام رفاقـك مـن دون أن أعـرف أو أحسـب هـذا الحسـاب، تبسَّـم سـليمان وقـال: لا عليـك وهـل تعتقـد أنَّهـم بحاجـة لشـاهد أو بحاجـة لأيِّ اتِّهـام..؟ هـل تعلـم أنَّ القاضـي لـم يسـأل رفاقـي أيّ سـؤال إلَّا مـا اسـمك انقلـع إعـدام؟؟؟ خفِّـف عنـك يـا أخـي، فقـد أخبرونـا منـذ ذلـك الوقـت أنَّـك شـهدت علينـا، ولكـن لـم يكـن للأمـر أيّـة أهمِّيَّـة، فهـم يعرفـون أنَّنـا أبريـاء مـن كلِّ التُّهـم، فلـم نكـن نريـد أن نفجـر أو نقتـل، ويعرفـون أنَّنـا لـم نكـن نحمـل سـكيناً، هُـمْ متأكـدون مـن كلِّ شـيء، ولكنَّهـم أرادوا أن يجعلـوا أنفسـهم بأمـان مـن وراء شـهادتك بعـد أن قبضـوا الرَّشـوة، فجعلـوك تبصـم على أوراقٍ مختومـة عليهـا شـهادتك، وأرفقـوا بتقريرهـم أنَّـك تعمـل معهـم حتَّـى يبرِّئـوا أنفسـهم إذا مـا هـم سُـئلوا، وأصارحـك القـول نِعـمَ مـا فعـل أبـوك، ولـولا هـذا كنـت سـجنت معـي ولـن تشـاهد الحريَّـة لسـنوات طويلـة.

عندمـا تخـرج سـلِّم على الحـاج وقـل لـه: إنَّ سـليمان قـد سـامحك، وإنَّـك كنـت على حـقٍّ فلـو كان أبـي يملـك مـا يملكـه أبـوك مـن الأمـوال لـكان بالتَّأكيـد لـن يتركنـي أرحـل إلـى هـذا الجحيـم

لـم يُصـدِّق مـا سـمعه مـن سـليمان، إلَّا أنَّـه في هـذه المـرَّة اسـتطاع أن ينظـر إلـى وجـه سـليمان بـكلِّ بـراءة وصـدق، وقبـل أن يتـرك يـده قـال لـه سـليمان: لا تنـسَ أن تسـلِّم لـي على أمِّـي وأبـي وأُختِّـي، وتقـول لأبـي أن ينتظرنـي فسـوف أخـرج مـن هـذا السِّـجن إن شـاء اللـه، وسـأعوضه عـن كل مالاقـاه في غيابـي

وكيـف لـي أن أسـلِّم على أبيـك يـا أخـي وهـو في السَّـماء عنـد اللـه منـذ سـنوات بعيـدة، ينتظرنـا لنفـرح قلبـه عندمـا نخبـره بقتـل غرمائـه المجرميـن ولكـن لـن أخبـره حتَّـى لا يمـوت مسـتقبله وتنطفـئ جـذوة الأمـل في خاطـره قـال سـامح بنفسـه

الحقيقة لم يكن سليمان راضياً عن فعل سامح وأبيه، ولكن ما حصل قد حصل، ولم يشأ أن يُحمِّله وزراً إضافياً بعد ما لاقى من عذاب في سجنه
وما إن جاء الحارس حتَّى نادى على سامح، الَّذي خرج بعد أن ألقى نظرة وداع على أصحابه، وعلى هذا المكان القذر الَّذي ظنَّ أنَّه سيكون له قبراً، وبعد إجراءات الخروج ركب السَّيارة، وفي هذه المرَّة كانت سيَّارة مريحة، أجلسوه بالخلف بين حارسين منطلقين إلى دمشق، ثمَّ إلى فرع الأمن العسكري فيها، دخلت السَّيارة واقتيد فوراً إلى مكتب رئيس الفرع، الَّذي كان بانتظاره، فتح العسكري الباب وقدَّمه إلى رئيس الفرع قائلًا :لقد أحضرنا السَّجين يا سيادة العميد،

قال العميد : تعال يا سامح اِجلس على الكرسي، جلس سامح وكأنَّه رجل آلي ولم يتفوَّه بكلمة
نظر إليه العميد نظراتٍ ملؤها الحقد والكره قائلًا: هل تعلم أنَّ سيادة الرَّئيس المفدى حافظ الأسد قد أصدر أمراً بالإفراج عنك؟

لا أعلم..
أجل مع الأسف: لقد أصدر أمراً البارحة، وأريد أن ألفت نظرك إلى عدة أمور، لا تظنُّ أيُّها الحقير أن الرَّئيس الخالد أصدر الأمر لأنَّك سوري، أو لأنَّك حلبيٌّ تمتلك عائلتك أموالاً كثيرة، أو لأنَّ فرنسا أو رئيسها تدَّخل للإفراج عنك، ولكنَّها مَكرمةٌ من سيادته

وتابع: أنت وعائلتك وكلّ الشَّعب السُّوري والفرنسي على صرمايتي القديمة، أنظر (ولاك) هذا البلد لنا، وهي مزرعة ورثناها من آبائنا وأجدادنا، من أراد أن يعيش خادماً وعبداً تحت أقدامنا فليبقَ بيننا، ومن أراد أن (يتنطط) علينا فلينقلعْ من هذه البلد إلى أيَّة منطقة تلمه،(درب إلي يسدّ ولا يردّ)وأنت ستذهب من هنا إلى المطار مباشرة، ولا تحسب أنَّنا قطعنا لك تذكرة ركوب الطَّائرة، فأنت لا تستحق أكثر من الرَّمي بالرَّصاص كمصير

الخونة، دولة فرنسا هي من أحضرت لك التَّذكرة، وإذا فكرت بالرُّجوع إلى سوريا مرَّة ثانية، فسأكسر قدمك وقدم رئيس فرنسا وقدم حقوق الإنسان والحيوان مثلك إذا اِقتضت الحاجة، والآن سيوصلك الحارس إلى المطار، والله لا يرد أمثالك من الخونة والعملاء

قرع الجرس فدخل الحارس، أشار إلى سامح قائلاً: أوصلوا هذا الكلب إلى المطار

لم يجد سامح كلمات تستطيع أن تصف هذا الموقف وهذا الحقد وهذه الدَّناءة، ركب السَّيارة من دون أن يحرك شفتيه بكلمة، توجه إلى مطار دمشق، وما إن وصل حتَّى كان رجال أمن المطار ينتظرونه، أمسكوه من يده وسحبوه إلى قاعة المغادرة، وبعد ثلاث ساعات من الانتظار رجعت طائرته إلى فرنسا الَّتي كان يجب أن يعود فيها قبل ثلاث سنوات

النِّهاية

في مطار فرنسا كان هناك موظَّف كبير، يعمل في الوزارة الخارجيِّة الفرنسيَّة استقبله على باب الطَّائرة، فسامح لا يملك جواز سفر ولا يملك أيَّة هوية شخصيَّة، فقد أخذ رجال أسد وثائقه ولم يعيدوها له، أدخله الموظَّف من باب جانبي إلى صالة المطار الخارجيَّة، وكانت إيليت بانتظاره، وبعد أن سلَّمت عليه بحرارة، استأذنها ببعض الأموال فهو يريد أن يتصل بأهله، اتَّجه إلى غرفة الهاتف وطلب رقم أهله، ردَّت أمُّه على الطَّرف الآخر بصوت غير مبالٍ: مرحباً

أمِّي أنا سامح، عقدت الدَّهشة لسان الأمِّ.

هل أنا بحلم أم بعلم.!!

أمِّي لقد خرجت من سجن تدمر، ورحَّلوني إلى فرنسا مباشرة، فلم أستطع القدوم إليكم، أمِّي

لن أترككم بعد الآن، وسأُحضرك أنت وأبي وأختي إلى فرنسا، وسنرجع للعيش سوية، أمِّي أعطني الحاج أبي لقد اشتقت إليه كثيراً، أريد أن أقول له: إنِّي أحبُّه وأفتخر به

وأرفع رأسي لأنَّه أبي، أريد أن أقبِّل يدي الحاج صباح مساء، أمِّي لمَ أنت ساكتة.؟

الحاج يا سامح أعطاك عمره يوم خرجنا من زيارتك في سجن تدمر.

أبي مات..؟؟الحاج مات..؟؟ آه يا حاج متَّ ولم أقل لك: إنَّ سليمان سامحك، متَّ ولم أخبرك أنَّ فضلك على رأسي إلى يوم الدِّين، آه يا حاج قد قتلونا وأعدمونا منذ أن ولدنا، قتلونا ونحن أحياء..نظام الأسد أعدم الشَّباب السُّجناء مرَّة

وأعدم ما بقي من يتنفس من أهل سوريا آلاف المرَّات.
وعندما علا بكاء سامح، أمسكت إيليت السَّماعة وطمأنت أمَّه بكلمات عربيَّة ثقيلة، فقد تعلَّمت قليلاً منها، وأخبرتها أنَّها ستعتني به ولن تتركه ثانية

أغلقت سماعة الهاتف، وركبا السَّيارة متَّجهين إلى غرفة صغيرة في فندق وسط باريس، كانت قد استأجرتها لسامح، وبعد أن استرجع قليلاً من قواه واِتِّزانه، أوَّل ما فكر به أن يزور بيت أبي وليد، الَّذي استقبله استقبال الفاتحين، وعرض عليه أن يرجع لعمله الَّذي تركه فما زال محله شاغراً مضت ستَّة أشهر تزوَّج سامح بإيليت، الَّتي تعمل طبيبة داخليَّة، ورجع إلى جامعته ليكمل ما بقي له من دراسته، وعاد إلى منظمة حقوق الإنسان ليتابع عمله فيها، ويفضح تجاوزات حقوق الإنسان في العالم، وخاصَّة ما يسمى بسوريا الأسد، وبعد أشهر رزق بمولود صغير جميل ذي شعر أسود ووجه أبيض، قال إنَّه يشبه جدَّته لأمِّه، وقد أسماه عبد السَّتار على اسم الحاج أبيه

وفي يوم أحد وهو يوم عطلة، وفي العادة يقضيه سامح في بيته مع إيليت وعبد الستار صغيره، الَّذي بكى كثيراً وتابع البكاء وعلا صوته، فاضطر سامح للخروج إلى الصَّيدلية الَّتي هي بجوار البيت، يريد شرابغً مهدئاً عسى أن يسكت صراخ صغيره وأوجاعه، وما إن دخل الصَّيدلية حتَّى سمع صوت انفجار بالجوار، خرج راكضاً فإذا البيت الأرضي الَّذي يسكنه بالبنايَّة يصدر منه دخان كثيف، ركض باتِّجاهه دافعاً الباب نصف المفتوح، فوجد إيليت وعبد السَّتار وقد غطت الدِّماء وجهيهما، وتناثرت أشلاؤهما بين زوايا البيت

وقد أعلنت شرطة باريس أنَّ الانفجار عمل إرهابيٌّ، قُتلت فيه الطَّبيبة إيليت وطفلها الرَّضيع، وقامت الشُّرطة بفتح تحقيق في الواقعة، وسنوافيكم بكلِّ

جديد، وما تزال الشُّرطة الباريسيَّة تحقِّق، وما يزال سامح يعمل بمنظمة حقوق الإنسان، وما يزال رفاق سامح قابعين في سجون الطَّاغية أسد، وما يزال نظام أسد ورئيسه يدعس على رأس الإنسان وحقوقه، وما تزال دول العالم ومنظماته وأمَّمه المُتَّحدة تغطي وتساعد نظام أسد لينتقص ويقضي على الإنسان وحقوقه، وليخلَّد كديكتاتورٍ ينفِّذ كلَّ أجندات الدُّول العظمى، وليكون سيفاً مسلطاً على إرادة الشَّعب، ليسرق خيرات البلد وأحلام أهله، ويضعها بين أيدي المتنفِّذين في العالم ليزدادوا ثراء وطغياناً، ويجعل حياة السُّوريين جحيماً، ولتكون كلمة سوري وبالاً على من ينتمي إلى بلد كلّ شيء صعب فيه إلَّا الموت...

الخـــــــاتمة

مـن عـاش هـذه الحقبـة البشـعة مـن تاريـخ سـوريا الحديـث، سـيعلم صـدق الرِّوايـة، ففـي كلِّ زاويـة من زوايـا البيـوت السُّـوريَّة، وفي كلِّ غرفـة مغلقـة كثيـر مـن الذِّكريـات الباكيـات المبكيـات الأليمـات، الَّتـي جعلـت حيـاة السُّـوريين بيـن خـوف مـن الحاضـر، ورعـب ممَّـا قـد يُخبِّـئ القـدر لهـم

سـجن تدمـر وسـجانوه ومسـجونوه هـم حقيقـة، كنا نتمنَّـى ألَّا تكـون موجـودة في عمـر التَّاريـخ السُّـوري، ولكـن مـع الأسـف هـي راسـخة في عقـول كثيـر مـن زواره وذويهـم، فالأحـداث الَّتـي شـهدها سـجن تدمر، لـو قُصَّـت بحذافيرهـا، لانغلـق قلـب البشـريَّة وقلـب حقـوق الإنسـان على الإنسـان السُّـوري

محمد ظلال محمد بديع المعلم